

## الباب الثاني

### أهمية الأخلاق في الإسلام

الفصل الأول: مكانة الأخلاق في الإسلام.

الفصل الثاني: ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية.

الفصل الثالث: دور الخلق في الإسلام.

الفصل الرابع: أهم الأسس الأخلاقية في نظر الإسلام.

الفصل الخامس: المسؤولية الأخلاقية.

## الفصل الأول

### مكانة الأخلاق في الإسلام

إن أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية - على وجه الأرض - لا يستطيع أفرادها أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، لهذا كانت مكانة الأخلاق فى نظر الإسلام غاية فى الأهمية. ولذلك جعل الله الأخلاق مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة، فيعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم ﴿ وَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ... ﴾ (١) ﴿ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَنُيَبِّئُوكَ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢)، ويكافئ الأبرار الصالحين بالجنة ويعاقب الفجار والأشرار يوم القيامة، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٣) ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (٤).

وقال الرسول ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [رواه البخارى].

وقد قرن الله تعالى بر الوالدين والشكر لهما بالشكر لله وبعبادته، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴾ (٥).

وعد عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله، فقال الرسول ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور» [رواه البخارى].

لكن لماذا هذا الاهتمام بالأخلاق؟

والسبب فى اهتمام الإسلام بالأخلاق، هو أن الأخلاق أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية، ولنتصور - مثلاً - حياة مجتمع من المجتمعات أهملت فيه المبادئ الأخلاقية. وسادت فيه الخيانة والفسق والكذب والغش والسرقه وسفك الدماء

(١) سورة يونس الآية ١٣.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٥.

(٣) سورة الإنفطار الآية ١٣ - ١٤.

(٤) سورة لقمان الآية ١٤.

والتعدى على الحرمات والأعراض، وزالت كل المعانى الإنسانية فى علاقات الناس من المحبة والنزاهة والتعاون والتراحم والإخلاص .. إلخ، فهل من الممكن أن تدوم الحياة الاجتماعية فى هذه الحالة؟! لا شك فى أن الحياة عندئذ تتحول إلى جحيم لا يطاق، ويتحول الناس إلى وحوش ضارية أكثر من وحوش الغابات، ويشقون شقاء ما بعده شقاء. لأن الإنسان بحكم طبيعة خلقته بحاجة إلى الغير، وفى طبيعته نزعة التسلط والتكبر والأنانية والانتقام فإذا استخدم هذه القوى فى الفساد أهلك الحرث والنسل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُقْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْأَعْرَثُ وَالشَّلْتَلُ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۗ ﴾ (١)

ولهذا:

فإن الإسلام بحاجة إلى نظام أخلاقى يحقق له حاجاته الاجتماعية، ويقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة، ويوجهه إلى استخدام قواه فى ميادين يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير. ولهذا أمر بالتعاون الاجتماعى فى تحقيق الخيرات، ونهى عن التعاون فى الإثم والعدوان، فقال تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ ﴾ (٢)

## الأخلاق فى القرآن والسنة

الأخلاق الإسلامية تبدو متغلغلة فى كل فروع المعرفة الإسلامية يؤكدها القرآن الكريم والحديث النبوى، وتمكن لها النواصح والآداب العامة، وتتغنى بها الأشعار وتمتدحها القصص والأمثال. ثم إن الله تعالى أرسل الرسل والأنبياء يحملون الهداية والدعوة إلى الله تعالى، ويدعون فى رسالتهم السماوية إلى منهج أخلاقى ثابت حدد البارى سبحانه معايير وقواعده بحيث لا يمكن أن تستقيم الحياة الفردية أو الجماعية بدونها. وكان خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ الذى أبلغه رب العزة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۗ ﴾ (٣)

لقد رحم الله البشرية كلها فى كل مكان وزمان برسول الرحمة الذى حمل لهم تمام التشريع وكماله فى الكلام الموحى، القرآن الكريم الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۗ ﴾ (٤)، وكان للنبي ﷺ كمال السلوك والسيرة، وكان القدوة الصالحة حيث تميز بالتمام المطلق من كل نوع من أنواع السلوك الفاضل.

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٢.

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٤) سورة فصلت الآية ٤٢.

ففي رسالة محمد ﷺ اقترن التشريع بالتطبيق، لذلك بات صلاح الإنسان وخير المجتمعات في السعى لتطبيق الأخلاق الإسلامية، التي لا يأتيها الباطل، ولا يشوبها ميل شخصي كما هو الحال في الفلسفات الأخلاقية الوضعية.

بعد هذا الهدى المحدد للقيم الأخلاقية يصبح واجب المفكرين المصلحين ليس البحث عن قواعد الفلسفة الأخلاقية - عند الغرب - وإنما واجبهم أن يجتهدوا في الشرح والتفصيل والأخذ بيد الناس كي يلتزموا شرع الله تعالى، وبما جاء في سيرة النبي الكريم ﷺ.

## أولاً: الأخلاق في القرآن

القرآن الكريم وموقفه من الأخلاق:

الأخلاق في القرآن الكريم تفرض سلطانها على جميع وجوه النشاط البشري سواء ما اتصل منها بعلاقة الإنسان مع نفسه، أم مع بني جنسه في الفرد والمجتمع بل يتخطى ذلك كله إلى علاقة الإنسان بالكون كله. وإذا كان الله عز وجل هو خالق الإنسان فهو الأقدر على صيانته والأعلم بما يصلحه، وإذا كان القرآن، هو كتاب الله الذي أنزله لهداية الناس فلا بد أن يجدوا فيه إطاراً كاملاً لدستور أخلاقي فيه سعادة البشر وصلاحهم، لأنه جاء من رب العالمين، ونزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ إلى العالمين.

ثم إن لفظ «خلق» جاء في القرآن الكريم مرتين، وإن كان القرآن الكريم كله مليئاً بمبادئ الأخلاق السامية التي ترتبط بالعقيدة الصحيحة كما ترتبط بالوجه الآخر للتشريع.

● الآية الأولى: قال تعالى ﴿إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(١)</sup>، فقد وردت هذه الآية في سياق آيات أخرى (من الآية ١٢٣: ١٤٠ سورة الشعراء) من أجل تقبيح خلق الجبابرة الظالمين، يتجبرون حين يبطشون ولا يتحرجون في القسوة في البطش ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾<sup>(٢)</sup> هؤلاء هم قبيلة عاد وهم قوم هود عليه السلام فقد دعاهم لعدم التعلق بالدنيا والتطاول في العمران، وأن يعبدوا الله فذلك أقوم وأفضل لهم. لكنهم لم يستجيبوا لدعوة نبيهم (هود) عليه السلام محتجين بحجة واهية، مفادها أنهم سائرون على نهج الأولين وهم يستبعدون وقوع العذاب على خلق الأولين.

لكن الأمر ينتهي في كلمتين حاسمتين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، لقد حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات نتيجة لسوء خلقهم، وهبت عليهم الريح العقيم فلسطها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، أي شؤماً فصارت أجسادهم كأنهم أعجاز نخل خاوية.

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٧.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٣٠.

(٣) سورة الشعراء ١٣٩.

● الآية الثانية: التي ورد فيها لفظ (خلق) وهي تمثل القسم الثاني من الأخلاق وهو الخلق الحسن. وهذه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلِكٌ خُلِقْتَ عَظِيمًا﴾ (١) إن وصف محمد ﷺ بالعظمة الأخلاقية، لم يرد لأى إنسان بهذه الصورة فى القرآن الكريم، وفى الآية لفت نظر للناس إلى أن مبلغ هذه الرسالة العظمى ليس إنساناً عادياً وإنما هو مؤهل بأجمل الأخلاق. قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: (على خلق) على دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى منه، وفى صحيح مسلم عن عائشة حينما سئلت عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن».

### القرآن دعوة أخلاقية:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذى أنزله لهداية الناس أجمعين، وهو دستور أخلاقى فيه سعادة البشر لأنه يدعو الناس إلى خصال الخير وإلى مكارم الأخلاق، وهو الكتاب الجامع لأسمى المبادئ وأقوم المناهج وخير النظم، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من أمور الدين والدنيا، فهو يرسم للناس طريق العبادة من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والذكر والفكر، والدعاء، والجهاد، والإخلاص، والتوكل، والرجاء، والخشية، والحب، والتوبة، والإنابة .. الخ، ليربطهم بالله فتتهذب نفوسهم، وتقوى إرادتهم، وتسمو أرواحهم إلى مدارج العزة والكرامة، ولتتجرد من ماديات هذه الحياة وتتجه إلى خالقها وبارئها لتستمد منه النور والهدى، وتستعين به على الاضطلاع بأمانة الحياة ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١١٣) ﴿٣﴾ وهذه العبادات كلها سهلة ويسر لا مشقة فيها ولا عسر.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٣)

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٤)

وأفاض القرآن الكريم فى النواحي الأخلاقية والآداب العامة والخاصة والفضائل التى تنهض بالفرد وترقى بالجماعة، وألح فى الدعوة إليها والحث عليها ليكتمل المجتمع الإنسانى، ويصل إلى المنزلة التى يكون بها أهلاً للخلافة فى الأرض:

(١) سورة القلم الآية ٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿١﴾ .

بالإضافة إلى هذا فإنه يضع النظام الذي يربط الإنسان بأخيه الإنسان، ويحدد الصلات بين الأفراد بعضهم ببعض فى التعاون وسائر المعاملات، لدرء الخصومة ورفع النزاع، ويشرع الشرائع الاجتماعية التى تنظم:

- التشريع الأسرى كالزواج والطلاق والوصية والمواريث...
  - التشريع المالى المتعلق بمعاملات الناس كالبيع والشراء والرهن والإجارة ..
  - التشريع الحربى المتعلق بالقتال والحرب والسلم وعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها ..
  - التشريع السياسى المتعلق بنظام الحكم والسياسة العادلة..
  - الآداب الشرعية والاجتماعية من الاستئذان والتحية والاحتشام..
- وغاية القرآن من ذلك كله أن تعم الأخلاق الفاضلة المؤمن الصالح والأسرة المسلمة والمجتمع الفاضل والحكومة الصالحة ليتألف من هؤلاء جميعاً كيان إسلامى قوى يقيم الحق والعدل ويرفع الظلم، ويدفع العدوان، لتكون له خلافة الأرض.



(١) سورة الأعراف الآية ٣٢ - ٣٣.

## ثانياً: الأخلاق فى السنة

السنة مصدر من مصادر التشريع:

السنة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى الذى يلى القرآن فى تبيان عقائد الإسلام وعباداته، وآدابه وشرائعه، وهى بهذا المعنى تقرّر ما فى القرآن وتؤكدّه، وتبينه وتفسره، كما أنها تستقلّ بتشريع الأحكام، وتنص على تحليل الحلال، وتحريم الحرام مما لم يرد فى القرآن له نص: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١) وفى هذا يقول رسول الله ﷺ: «ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه...» [رواه أبو داود] أى أوتيت مثل القرآن فى تشريع الأحكام مما لم يرد له فى القرآن نص.

عن معاذ أن النبى ﷺ أرسله إلى اليمن وقال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال: أفضى بما فى كتاب الله.

قال ﷺ: «فإن لم يكن فى كتاب الله؟» .

قال: فبِسنة رسول الله ﷺ.

قال ﷺ: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟» .

قال: أجتهد رأى لا آلو.

قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ فى صدرى، ثم قال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ﷺ» [رواه أبو داود] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: لعن الله الواشحات والمستوشحات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فقالت له امرأة فى ذلك فقال: وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو فى كتاب الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [رواه الشيخان] .

ومن ثم حرص ﷺ على أن تذاق سنته، وأن تنتشر تعاليمه وتكون نوراً يستضاء به، ولتتحقق القدوة به فى قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ (٢).

وعن العرياض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: «أوصيكم بتقوى الله

(١) سورة النحل الآية ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً  
فعلیکم بسنتی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات  
الأمر فإن كل محدثة بدعة» [رواه أبو داود].

وأهل السنة هم الغرباء المصلحون: ففي حديث الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «بدأ  
الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء». .  
زاد الترمذى فى تفسير الغرباء أنهم هم «الذين يصلحون ما أفسد بعدى من سنتى» ورجال  
السنة هم رجال الحق الذين يذودون عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

## روابط المجتمع الإسلامى وأخلاقياته

يهتم الإسلام بالمجتمع ويضع الأسس الثابتة التى يقوم عليها بنيانه، والخطوط العريضة  
التى تصون كيانه، وتحفظه من التصدع والسقوط، إنه يربط المسلمين جميعاً ببعضهم ببعض  
برباط هو أوثق الروابط، وهو رباط الأخوة الدينية التى تذوب أمامها الفوارق: من نسب عريق،  
ومال وفير، وجاه عريض.. وهذه الأخوة تكتسب بمجرد الدخول فى الإسلام.  
الأخوة فى الله:

يقول الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [رواه الشيخان].

ويقول أيضاً: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله» [رواه مسلم].

ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه، ويصون حرمة فى حضوره وغيبته ما استطاع  
إلى ذلك سبيلاً، ويقول رسول الله ﷺ: «من رد عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم  
القيامة» [رواه الترمذى].

إصلاح ذات البين:

على المسلمين أن يسارعوا إلى إصلاح ذات البين، وتقوية الروابط إذا تعرضت لوهن أو  
ضعف، ولا تقل أهمية هذه المسارعة عن أهمية المسارعة إلى الصلاة وغيرها من العبادات، فعن  
أبى الدرداء ؓ أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟  
قالوا: بلى.

قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هى الحالقة» [رواه الترمذى].

والإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمر حتمى ولو لم يتم ذلك إلا بالعنف محافظة على  
الكيان العام للجماعة، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء.. يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِىءَ

إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١١﴾  
الحب في الله:

أُحِبُّ فِي اللَّهِ لَهُ مَكَانٌ فَسِيحٌ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَتَّبِعُونَ مَنَازِلَ الْكِرَامَةِ وَيَبْلُغُونَ دَرَجَاتِ الصَّدِيقِينَ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللَّهِ، الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي» [رواه مسلم].  
«وَمِنْ عَادٍ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ طَبِّبْ وَطَابَ مِمَّا شَاكَ وَتَبَوَّأَتْ مِنَ الْجَنَّةِ مَنزِلًا» [رواه أبو داود].

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأُرْصِدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تَرِيدُ؟  
قَالَ: أُرِيدُ أَخًا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ.

قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْبِهَا عَلَيْهِ؟

قَالَ: لَا. غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ أَخْبِرْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ» [رواه مسلم].

وَقَالَ مَعَاذُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجِبْتَ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ» [رواه مالك].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَتُؤْمِنُوا، وَلَا تَتُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشَا السَّلَامُ بَيْنَكُمْ» [رواه مسلم].

دَعْوَةُ السَّنَةِ إِلَى الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَبَيَانُ آثَارِهَا الطَّيِّبَةِ:

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُوصِي أَصْحَابَهُ بِالِاتِّزَامِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَيُحَثُّهُمْ عَلَيْهَا، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَيْكَ بِحَسَنِ الْخَلْقِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَمَا حَسَنَ الْخَلْقِ يَارَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تَصِلُ مِنْ قِطْعِكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَعْطَى مِنْ حَرَمِكَ» [رواه البيهقي].

وَمِنْ خِلَالِ دَرَاةِ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَضْعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ بَعْضُ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لِمَا لَهَا مِنْ آثَارِ طَيِّبَةٍ تَعُودُ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ.

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خَلْقًا، وَخِيَارَكُمْ خِيَارَكُمْ لِنَسَانِهِمْ» [رواه الترمذي].

(١) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ الْآيَةُ ٩.

٢ - عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذيء» [رواه الترمذى].

«البذيء»: هو الذى يتكلم بالفحش، وردىء الكلام.

٣ - وقال صلى الله عليه وسلم: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق» [رواه البزار عن أبي هريرة].

٤ - وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» [رواه ابن حبان].

٥ - عن أنس رضى الله عنه قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال له: «يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل على الميزان من غيرهما؟» .

قال: بلى يا رسول الله قال: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذى نفسى بيده ما عَمِلَ الخلائق بمثلهما» [رواه الطبرانى].

٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خلقاً [رواه الشيخان].

٧ - وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فى افتتاح الصلاة: «اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت» [رواه مسلم].

وروى الترمذى عن عبد الله بن المبارك - رحمه الله - فى تفسير حسن الخلق.

قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وقال أيضاً: حسن الخلق فى ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.

وقال الحسن: حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل الندى وكف الأذى.

وقال آخر: حسن الخلق: أن يكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً.

#### علامات الخلق الحسن:

قالوا فى علامات صاحب الخلق الحسن، أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برّاً وصولاً، وقوراً، صبوراً شكوراً، رضىاً حليماً، وفياً عفيفاً، لا لعاناً ولا سباباً، ولا تماماً ولا مغتاباً، ولا عجولاً ولا حقوداً، ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً ههشاشاً، يحب فى الله ويبغض فى الله ويرضى فى الله، ويسخط فى الله.

هذه طائفة من آيات الذكر الحكيم ومن أقوال الرسول الكريم ثم من آثار السلف الصالح،  
وهي قليل من كثير تدلنا دلالة قاطعة على أن لحسن الخلق آثارا طيبة تعود على الفرد  
والمجتمع في الدنيا والآخرة.  
ومن الأشياء المعروفة لدى العامة أن حسن الخلق يعد مفتاحًا للرزق ومجلبة للخير، وقيل  
في الأمثال العربية: «إن في سعة الأخلاق كنوز الرزاق».

\*\*\*

## الفصل الثاني

# ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية

إن الأخلاق الإنسانية ضرورة حية للأفراد والمجتمعات لما تنطوى عليه من مبادئ ومثل إنسانية عليا، تصلح للإنسان بصرف النظر عن زمانه ومكانه، لأنها من وضع خالق البشر العليم بخلقه وما يناسبهم من مبادئ الأخلاق، بل الإنسان اليوم في حاجة ماسة إلى الأخلاق الإنسانية من أي وقت مضى، خاصة ونحن في عصر تحكمت فيه الشهوات في نفوس الناس، وضاعت الأخلاق الفاضلة بعد أن أبعد الإسلام من مجال التطبيق العملي، فشاعت فيه الرذائل التي أثمرتها مناهج البشر وأنظمتها والتي اهتمت بالجانب المادي من الإنسان على حساب الجانب الروحي.

لقد دلت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقاؤها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهايار أخلاقها، ومتناسب معه فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائمًا، صاعدين وهابطين.

وإذا أردنا أن نوضح بالأمثلة حقيقة كون الأخلاق تمثل المعاهد التي تعقد بها الروابط الاجتماعية تواردت علينا أمثلة كثيرة جدًا ومنها:  
فضيلة الأمانة كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن الأمانة بوصفها خلقًا ثابتًا في الفرد المسلم ومعقدًا من معاهد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس بما يضعون بين يديه من مال أو سلطان، وبما يمنحونه من وجهة وثقة، وبما يكون إليه من أمور عامة وخاصة ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة، أنه متى انهارت في الإنسان فضيلة الأمانة انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية، وغدا الناس لا يأمنونه على أي شيء ذي قيمة معتبره لديهم - خاصًا كان ذلك أو عامًا - لأنهم يقدرون أنه سوف يسطو عليه لنفسه، بعد أن أسست رذيلة الخيانة هي الخلق الذي وجدوه فيه.

فضيلة الصدق كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن الصدق بوصفه خلقًا ثابتًا في الفرد المسلم ومعقدًا من معاهد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة المجتمع بما يحدث به ويخبر عنه في مجال التاريخ والأخبار وفي مجال العلوم

المختلفة، وفي مجال المعاملات المادية والأدبية، ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة أنه متى انهارات في الفرد فضيلة الصدق انقطعت بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدث به أو فيما يعد، فلا يكون إليه أمراً، ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً، ولا يواسونه إذا اشتكى لهم من شدة لأنهم يرجحون في كل ذلك كذبه، بعد أن أمست رذيلة الكذب هي الخلق الذي وجدوه فيه.

فضيلة العفة كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن العفة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم ومعقداً من معاهد الروابط الاجتماعية تنعقد عليه ثقة الناس به في أعراضهم، وبهذه الثقة تأمنه الأسرة على عرضها إذا غابت، ويأمنه الجار على عرضه إذا ترك منزله، وتأمنه الزوجة إذا خرج إلى عمله، والمرأة العفيفة كذلك تكون موضعاً للثقة بها عند الغيبة عنها. ومتى انهارت في الإنسان فضيلة العفة لم يأمنه الناس على أعراضهم، ولم يأمنوه على بلادهم ومصالحهم العامة، لأنهم يقدرّون أن أعداءهم سوف يسهل عليهم صيده من مغمز عفته المنهارة، ثم تسخيرها في خدمة أغراضهم.

وبذلك تنقطع بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية الهامة. وهكذا نستطيع أن نقيس على هذه الأمثلة سائر مكارم الأخلاق، كالعدل، والجود، والوفاء بالعهد والوعد، والحياء، والإحسان، والمروءة، والأمانة والشجاعة، والعطف على الناس، وغير ذلك من فضائل الأخلاق ومكارمها، وانھیار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائماً انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية وبانهيارها جميعاً تنهار جميع الفضائل الخلقية في الأفراد، وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية، ويمسى المجتمع مفككاً منحللاً.

فالإنسان في الإسلام لم يخلق لمجرد الأكل والشرب، بل لكي يحقق ذاته وسعادته الحقيقية من خلال اتباعه لقيم الخير واجتنابه للشر، وتحليه بأفضل القيم الخلقية، وبأفضل الأعمال التي تمكنه من اكتساب حب الناس واحترامهم، وحب الله تعالى الذي يورث الإنسان دار الخلد والنعيم المقيم.

والى هذه الغايات تشير الآيات الكريمة، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ۝﴾ (٢).

(١) سورة هود الآية ٧.

(٢) سورة الملك الآية ١ - ٢.

إن وظيفة الإنسان في هذه الحياة هي وظيفة أخلاقية، فهذه الآيات تدفع الإنسان إلى يقظة الضمير دائماً، وتجعله واعياً بالخير والشر<sup>(١)</sup>، فيكون أحسن أخلاقاً وعبادة وسلوكاً في الحياة. ومن هنا زوده الله بالملكات الإنسانية من العقل والسمع والبصر، ليميز بين الفضائل والروايل، وبين الخير والشر، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾<sup>(٢)</sup> ويقول أيضاً ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفْطَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

إن السمع والبصر للابتلاء والاختبار بمعرفة الخير والشر والضلال والهدى من أجل اتباع الخير واجتناب الشر، وبذلك تكون وظيفة الإنسان في هذه الدنيا وظيفة أخلاقية.

- ١ -

## الأخلاق ضرورة عصرية

تتردى المجتمعات المعاصرة، خاصة في أوروبا وأمريكا في واقع اجتماعي مأساوي فمن العلاقات الجنسية الشاذة إلى الإباحية المفرطة في هذا المجال وصولاً إلى الإدمان على الكحول الذي بات معضلة تشل طاقات الكثيرين، مما دفع بالحكومات لأن تسعى جادة من أجل إيجاد الحلول لهذه المعضلات، بالإضافة إلى التفكك الأسري وتناقص عدد السكان، وذلك الفراغ الروحي الذي يعيشه إنسان مجتمعاتهم، حيث لا يجد من يواسيه إذا أصيب بمصيبة، ولا من يشاركه أفراحه ووجدانه إذا كان في حالة سرور أو ألم، مما ولد قلقاً وتشاؤماً يتلف حياة الأفراد في مجتمعاتهم.

ومع أن الإنسان - في مجتمعاتهم - حاول القضاء على هذا الشعور الأليم كما حاول التغلب على يأسه اللاشعوري بروتين التسلية والاستهلاك السلبي للأصوات والمشاهد التي تقدمها له صناعة التسلية، فضلاً عن التجائه إلى لذات شراء الأشياء الجديدة ثم استبدالها بغيرها .. إلخ ولكن هذه الأساليب المصطنعة لم تستطع أن تحقق له الشعور بالأمن والإحساس بالطمأنينة<sup>(٤)</sup>. إن المدنية الحديثة - مدنية الكم والمقدار - استطاعت أن تحقق تقدماً مادياً يحتمل شمل مختلف مجالات التصنيع، لكنها لم ولن تستطيع إشباع الجانب الروحي للإنسان، فالتقدم

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٣) سورة البلد الآية ٨ - ١٠.

(٤) بتصرف من الأخلاق في الإسلام الفلسفة القديمة/ أسعد السحمراني/ دار النفائس/ بيروت.

المادى الهائل ينعكس تدهورا هائلا فى سمات إنسانية الإنسان، وحياته الآدمية مما انعكس أنحرافاً أخلاقياً جعل من مجتمعات أوروبا وأمريكا جحيما لا يطاق.

والحل ليس فى فلسفات ينظر فيها فلان أو فلان، وإنما إنقاذهم يكمن فى العودة إلى رحاب الإيمان، لأن قيم الأخلاق الفاسدة التى أدت إلى انحطاط مجتمعاتهم ما هى إلا انعكاس لتلك الفلسفات الوضعية التى ادَّعوا أنها عقلانية، والتى سادت كل مجالات حياتهم.

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى ديننا  
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

إن نمط حياتهم على رغم كل التقدم المادى، جعل منها حياة تفتقر إلى أبسط المقومات الإنسانية، وأنتج خلافا فى علاقات الناس بعضهم ببعض، فإذا بالحرية الفردية المفرطة دون ضابط من القيم والمثل العليا تضبطها، تتحول إلى حيوانية مفترسة أقرب إلى أساليب عيش القطعان.

إنهم يفتقرون إلى أمر أساسى هو إيقاظ القيم، والتمسك بالمثل العليا النابعة من الدين، وليس من تفلسف الأفراد، على أن يكون منهاج يقظة القيم الأخلاقية هو ذلك السلوك الواعى المستند إلى منهاج إسلامى قاعدته وضابطه ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْنَاهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢).

- ٢ -

## موقف أعداء الإسلام من الأخلاق

لقد تحللت المجتمعات الأوروبية الحديثة من مبادئ الأخلاق، حيث نظرت إليها نظرة مادية نفعية ونسبية، وادَّعوا أن المقاييس الخلقية تختلف من عصر إلى عصر ومن جماعة إلى جماعة تبعاً لظروف المصلحة والمنفعة، فالكذب والغش والقتل وخلف الوعد كلها صفات أخلاقية - فى نظرهم - ما دامت تؤدى إلى تحقيق المنافع المادية، وبذلك ضربوا عرض الحائط بالقيم والفضائل الثابتة والنابعة من الدين مما أدى إلى التسيب الأخلاقى الذى زلزل أسس هذه المجتمعات، لأن الذى يمسك المجتمع من التفكك والانهيار هو المعاملات الأخلاقية بين الناس.

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

(٢) سورة الشورى الآية ٢٠.

فإذا كانت الأخلاق التي تحكم المجتمع أخلاقاً إنسانية ربانية مثالية ثابتة عاش أفرادها في سلام وأمان، أما إذا كانت الأخلاق التي تحكم المجتمع أخلاقاً مادية متغيرة؛ فإن المجتمع بكل مستوياته سوف يكون معرضاً للتفكك والانحيار.

ومن هنا تعيش المجتمعات الغربية اليوم حالة من الانحلال الأخلاقي لأن المفكرين هناك دعوا إلى الحرية المطلقة الخالية من القيود الرافضة لقيم الحق والخير والفضيلة باعتبارها موارد دينية، وما داموا قد هدموا أساس دينهم فإنهم رفضوا معه الأخلاق الدينية. لقد ساد الخراب الأخلاقي أوروبا، وانطلق الشباب هناك في موجات يائسة يتسكعون في الطرقات، ضاربين عرض الحائط بكل قيمة أخلاقية تعارف عليها البشر، أو دعت إليها الأديان، وأقبل الشباب على تعاطي سموم المخدرات، وارتكاب أبشع الجرائم الجنسية والعذوانية. العدوى اللاأخلاقية:

وللأسف الشديد أن عدواهم اللاأخلاقية قد انتقلت إلينا عن طريق أجهزة الإعلام التي راحت تمجد في السلوك الغربي والقيم الغربية، وقد تأثر المسلمون فعلاً بهذا السلوك وهذه القيم فأصبح الدين قضية هامشية في حياة الناس، وأصبحت الفضيلة من مخلفات العهد البائد. وكان طبيعياً بعد ذلك أن يستهين المجتمع بالأخلاق وأن ينظر إليها على أنها شيء من مخلفات العهود البائدة، ليس لها مكان في دنيا الناس ومكانها الطبيعي هو المتاحف والآثار. وفي غيبة المنهج الإسلامي يظهر أهل الفساد ويعلنون ما أعدوه لطلاب المتعة الحرام من برامج مسلية، وفنون ممتعة، وفي غيبة المنهج الأخلاقي أيضاً يمكن أن ترى توسعاً كبيراً في انتشار الملاهي والمسارح ودور السينما ومعاهد الرقص والموسيقى والتمثيل .. ويمكن في ظل هذا الغياب أن تطفو على السطح نماذج من الفنانين والفنانات تجندهم وسائل الإعلام حيث تضخم وجودهم. وتتبع أخبار زواجهم وطلاقهم وسكرهم وعربدتهم حتى يكونوا هم النماذج التي يحتذبها الشباب، ويمكن أن تجد في كتابنا من ينظر إلى الاستقامة في السلوك على أنها انحراف يجب مقاومته، وقد حدث فعلاً أن تصدت إحدى الصحف لبنات المدارس اللاتي تحركت ضمائرهن إحساساً بالأزمة الأخلاقية الناشئة عن الهزيمة، فأرّين ضرورة الاحتشام، وسَترَ أجسادهن وشعورهن في الطرقات، فإذا بتلك الصحيفة تقلب القضية، وتتهم الفتيات الفاضلات بالتستر وراء الطرحة، وهن على مواعيد مع الشبان<sup>(١)</sup>، وهكذا تعيش المجتمعات الإنسانية اليوم في الشرق والغرب أزمة طاحنة بسبب غياب المنهج الأخلاقي الإسلامي، وسيطرة المناهج الأخلاقية الجاهلية.

(١) مقدمة دستور الأخلاق د/ عبد الصبور شاهين (بتصرف).

ذلك أن الأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة التي يدين بها الناس، فإذا كانت العقيدة جاهلية تكون الأخلاق بالضرورة كذلك، فلا يكون لها معيار ثابت، ولا تعرف الحق أو العدل. ولا ريب في أن معركتنا مع الصهيونية وحلفائها طويلة الأمد، وأن أمضى أسلحة القتال هو أن نتسلح بالأخلاق الفاضلة التي تحرم الخيانة، والتهاون، والتفريط، والغفلة أمام العدو، وتفرض البذل والتضحية بالنفس والمال، وتؤكد على دوام اليقظة في مواجهة الخطر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (١)، فتلكم هي الطريق إلى الإصلاح، طريق الثورة الأخلاقية، لا طريق غيرها (٢).

- ٣ -

### تفنيد مزاعم أنصار نسبية الأخلاق

يقول الأستاذ عبد الرحمن حنبكة: في خطة خبيثة لهدم بنيان الأخلاق، أخذ فريق من الماديين الملحدين ينشرون فكرة شيطانية، يزعمون فيها أن الأخلاق أمور اعتبارية، نسبية لا ثابت لها، فهي تختلف من شعب إلى شعب، ومن أمة إلى أمة، ومن زمان إلى زمان، فبعض الأمور تعتبر منافية لمكارم الأخلاق عند شعوب من الشعوب، أو أمة من الأمم، في حين أنها غير منافية لمكارم الأخلاق عند شعب آخر أو أمة أخرى، وبعض الأمور كانت في زمان مضى أموراً منافية لمكارم الأخلاق، ثم صارت بعد ذلك أموراً غير منافية لها ثبات، وهذا يدل - في زعمهم - على أن الأخلاق مفاهيم اعتبارية تتعارف عليها الأمم والشعوب وليس لها ثبات في حقيقتها، وليس لها مقياس ثابت، والغرض من ذلك - لدى هؤلاء المضللين - إفساد الأجيال حتى تنمرد على جميع الضوابط الأخلاقية التي تمثل في الأمم قوى ترابطها وتماسكها، وعناصر رقيها الإنساني.

قال المغالطون - الذين زعموا أن الأخلاق نسبية اعتبارية وليس لها حقيقة مطلقة ثابتة، وهي قابلة للتغير والتبدل من زمان إلى زمان ومن أمة إلى أمة - : إن مما يدل على ذلك أن بعض الشعوب ترى خروج النساء بدون حجاب عملاً منافياً للأخلاق بينما ترى شعوب أخرى أن هذا العمل أمر طبيعي لا ينافي ضوابط الأخلاق بحال من الأحوال.

ويدل على ذلك أيضاً: أن بعض الأمم تحرم أكل بعض أنواع من اللحوم، وتحرم شرب بعض أنواع من الأشرطة، وتعتبر مخالفة ذلك عملاً منافياً للأخلاق، بينما ترى أمم أخرى أنه

(١) سورة النساء الآية ١٠٢.

(٢) المصدر السابق.

لا شيء من ذلك محرم أو مناف للأخلاق، ويأتون أيضاً بمثال تعدد الزوجات وإباحته عند أمة وتحريمه عند أمة أخرى .. إلخ.

أليس عجيبيًا جدًا أن يُدخِلوا مثل هذه الأمثلة فى باب الأخلاق مع أنها فى جوهرها من أبواب أخرى غير باب الأخلاق، فهى إما أحكام دينية وإما طقوس وعادات وتقاليد، وإما مفاهيم خاصة تعارف عليها الناس.

فما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق؟

ولنفرض أن بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق، ولم يجدوا أى رادع من ضمائرهم يردعهم عنها، فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التى يمارسون بها العدل، ومارسوا الخيانة بمثل الجرأة التى يمارسون بها الأمانة، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التى يمارسون بها الشفقة والرحمة، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التى يمارسون بها الصدق النافع... إلخ.

أفغير ذلك واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل؟! والجواب بالنفى:

لأن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغير من واقع حال هذه الحقيقة شيئاً، بل وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس، وفساد تصور الناس لها. إن موضوع حجاب المرأة وسفورها أمر لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، إنما هو فى الحدود الشرعية حكم ديني يهدف إلى تحقيق مصالح دينية واجتماعية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذا الحكم فى موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو الغلط نفسه إذا أحسننا الظن. وكذلك موضوع الأطعمة والأشربة، فهو غير ذى علاقة بالأخلاق.

وأحكام الأطعمة والأشربة أحكام دينية تهدف إلى تحقيق مصالح دينية وصحية يقصدها الشارع، ومن ثم فإدخالهم هذه الأحكام فى موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو الغلط نفسه إذا أحسننا الظن.

فمن تبصر بالأصول العامة للأخلاق فى المفاهيم الإسلامية، فإنه لا بد أن يظهر له - بجلاء - أن الأخلاق الإسلامية تدخل ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغيير أو التعديل من شعب إلى شعب ولا من زمان إلى زمان، أما الأمة الإسلامية فهى أمة واحدة، وهى لا تتفق فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التى بيّنها الإسلام، والتى أوضحها فى شرائعه ووصاياه.

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية كالصدق والعدل والحياء والحلم والعفو والصفح الجميل.. إلخ وجدنا أن كل واحد منها ذات حقيقة ثابتة ثبوت الجبال الرواسى غير قابلة فى المنطق السليم للتحويل من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن.

إن حسننها حسن في كل زمان ومكان وقبحها قبيح في كل زمان ومكان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

إن الإسلام يقرر أن حب الحق وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحق وحب الباطل رذيلة خلقية أيضًا، فهل يشك إنسان عاقل سوي في أن هذه الحقيقة ثابتة غير قابلة للتحويل ولا للتغيير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! .. إلخ. وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية<sup>(١)</sup>.



---

(١) بتصريف شديد من الأخلاق الإسلامية، /د. عبد الرحمن حسن حنبلية.

## الفصل الثالث

### دور الخلق في الإسلام

- ١ -

توضيح:

جملة التعاليم الإسلامية تستهدف تحقيق الخلق العالى، والمثل العليا والأدب الرفيع، وإشاعة الرحمة والبر والإحسان، يقول الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [رواه أحمد] من أجل هذا المعنى نجد شرائع الله كلها وسائل لصقل النفس وتهذيبها، وإقامتها على الصراط السوى، فالعقيدة - من إيمان بالله وتقديس له - ، من شأنها أن توقف حواس الخير، وتربى ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالى الأمور، وتناهى بالإنسان عن محقرات الأمور وسفاسف الأعمال.

ومقياس الإيمان .. الخلق!

يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم [رواه الترمذى] ، وقد يجهد الإنسان نفسه فى عبادة يستمد منها دوام الثواب بحيث لا ينقطع فى ليل ولا نهار، فيديم صيام النهار فلا يفطر، وقيام الليل فلا يقتر. ولا ريب أن المواظبة على هذا والمثابرة عليه من عمل الصديقين، وليس كل إنسان بقادر عليه ولا مستطيع له .. ولكن الإسلام يفتح باب الخير - لمن شاء عن طريق الخلق، فيقول الرسول ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» [رواه أبو داود].

وتفاضل الناس واقتسامهم المنازل والدرجات عند الله بحسب الحالة الخلقية التى وصلوا إليها، يقول النبى ﷺ: «أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه» [رواه أبو داود]. وإنما يثقل ميزان الفرد أو يخف حسب قيمته الخلقية يقول الرسول ﷺ «ما من شئ أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء» [رواه أبو داود]. والخلق الحسن إنما يصدر عن نفس سمحة، وضمير حى، فكما يبدو حسنه فى الأمر الكبير يتجلى كذلك فى الأمر الذى يبدو وكأنه لا شأن له، ولقد رأى النبى ﷺ رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين [رواه مسلم].

فالإحسان إلى المسيء خلق حسن، والابتسام في وجه الصديق خلق حسن كذلك يقول الرسول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» [رواه مسلم] ، وكان من دعائه ﷺ «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي» [رواه أحمد] .  
ونار الله الموقدة التي هي شديدة الأوار التي وقودها الناس والحجارة، إنما يطفئها نصف ثمرة أو كلمة طيبة، يقول الرسول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» [رواه البخاري] .

- ٢ -

## اهتمام الإسلام بالخلق الحسن

لما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عظيمة جداً، ولما كانت سلامة النفس من المساوئ الخلقية - الذنوب والمعاصي - أهم من السلوك الظاهر، وأن ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات، والأذكار اللسانية. لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير واهتمام عظيم، فمنها النصوص التالية:  
أولاً: روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن» .  
فصدق العبادة لله تعالى عمل أخلاقي يثقل في الميزان، لأنه وفاء بحق الله تعالى على عبده، وحسن المعاملة مع الناس وفاء بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة تثقل في الميزان.

ومن المستبعد جداً أن يكون الإنسان ذا خلق كريم مع الناس محباً للحق، معطاء، متواضعاً، صبوراً عليهم رحيماً بهم، ودوداً لهم، متسامح النفس معهم، ثم لا يكون ذا خلق كريم مع ربه، فلا يؤمن بحق ربوبيته وألوهيته، ولا يذعن له بذلك، ولا يؤدي واجب العبادة له، كما أنه ليس من المعقول أن يكون ذا خلق كريم مع الناس وهو يأكل حقوقهم ويعتدى عليهم، فهذا مناف لما توجه به فضائل الأخلاق، لو كان حقاً ذا خلق كريم.

ثانياً: روى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» .

البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول ﷺ بأنه حسن الخلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير والانتساع فيها يقرب إلى الله تعالى ويرضيه سبحانه، أما كون الإثم ما حاك في نفس الإنسان وكرهه أن يطلع عليه الناس، ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر الله الناس عليه، وهذا الضمير يجس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالإثم،

وحيثما يحس بالإثم يلامس نفسه شعور خاص به، وحيثما يحدث هذا الشعور فى النفس يدرك الإنسان أن ما أحس به من شأنه أن يحس به كل إنسان آخر إذا اطلع عليه.  
ثالثاً: روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

الألد: هو شديد الخصومة، الخصم: هو كثير الخصومة المولع بها حتى تصير الخصومة عادة له، وظاهر أن الخصم الألد سيئ الخلق من درجة شديدة القبح، وقد أبان الرسول ﷺ أنه أبغض الرجال إلى الله تعالى.

رابعاً: روى الترمذى بإسناد صحيح عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «الغم والفرج». فتقوى الله وحسن الخلق من أحب الأعمال إلى الله فهما أكثر ما يدخل الناس الجنة، وفى كون الغم والفرج أكثر ما يدخل الناس النار إشارة إلى عناصر متصلة بسوء الخلق، إذ جعلهما الرسول ﷺ مقابل التقوى وحسن الخلق.

خامساً: روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً».

وروى الترمذى عن جابر أن الرسول ﷺ قال: «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

«الثرثارون»: هم الذين يكثرون الكلام ويتكلفونه. المتشدقون: هم الذين يتناولون على الناس بكلامهم، ويتكلمون بملء أفواههم تعاضماً وتعالىً على خلق الله».

سادساً: روى الترمذى بإسناد حسن عن أبى ذر وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت» وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

ففى هذا الحديث إشارة إلى قواعد السلوك الكبرى، التى من التزامها فقد أخذ سبيله لارتقاء مراتب المجد والكمال الإنسانى، وهذه القواعد ترشد إلى المنهج الخلقى العام الشامل لجانبى علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالناس.

أما علاقة الإنسان بربه فهى تقوى الله فى السر والعلانية، وذلك لأن الواجب الأخلاقى يفرض على الإنسان طاعة من خلقه فسواه فعدله، فأنعم عليه بالنعم التى لا يستطيع إحصاءها، ويفرض عليه أيضاً حمده وشكره وحسن عبادته وكل هذه الواجبات يجمعها تقوى الله فى السر والعلن.

أما عن علاقة الإنسان بالناس فهي في قوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن» أى ينبغي على الإنسان أن يعامل الناس بالخلق الحسن فى كل الأحوال.

أما قوله ﷺ: «وأتبع السينة الحسنة تمحها» ففيه إرشاد إلى منهج الإصلاح والتقويم، فمن سقط بارتكابه السيئة - سواء فى حق الله أم فى حق عباده - فى حالة من حالات الضعف الإنسانى فعليه أن يتبع هذه السينة بحسنة تمحها كى تعود النفس المؤمنة إلى تقائها وطهارتها بعد أن أصابها ما أصابها من أدناس السيئات، قال تعالى: ﴿وَإِذِ الصَّلَاةَ طَرَفَى الْأَثَارِ وَرُفَعَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

ولما كان حسن الخلق يحتل هذه المنزلة العظيمة فى الإسلام كان الرسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولم يذكر خلق حسن محمود إلا كان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر، روى البخارى ومسلم عن أنس قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً.

- ٣ -

### حسن الخلق يكفر الذنوب

إذا كان المسلم يبلغ درجة الصائم بحسن خلقه كما قال ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» فإن السماحة وبشاشة الوجه والصفح عن الإساءة كل ذلك مكفر للذنوب.

١ - قال ﷺ: «غفر الله لرجل كان قبلكم كان سهلاً إذا باع، سهلاً إذا اشترى، سهلاً إذا اقتضى» [رواه الترمذى].

٢ - وقال ﷺ: «تلتقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملت من الخير شيئاً؟ قال: لا.

قالوا: تذكر.

قال: كنت أداين الناس فأمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر، قال: قال الله: تجاوزوا عنه» [رواه الشيخان]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَعْقُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

٣ - ما ورد فى فضل من سقى حيواناً رفقاً به ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً

(١) سورة هود الآية ١١٤.

(٢) سورة النور الآية ٢٢.

فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ بى، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، فقالوا يا رسول الله: إن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال: «فى كل كبد رطبة أجر»<sup>(١)</sup>.

٤ - ما جاء فى أن حسن الخلق - وهو عمله الصالح - يكون أماناً لصاحبه من فتنة القبر ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر أن الملائكة تسأل العبد المؤمن فى قبره فيحسن الإجابة، وعند ذاك ينادى مناد فى السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره» قال: ويأتيه - وفى رواية: ويمثل له - رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك - أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم - هذا يومك الذى كنت تتوعد، فيقول من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح - فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله بطيئاً فى معصية الله فجزاك الله خيراً - ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما فى الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى.

- ٤ -

## إعداد المسلم خلقياً

المقصود بإعداد المسلم خلقياً أن يكون المسلم جياش العواطف كبير القلب، ينبسط للخير، ويفرح به، ويحرص عليه، وينقبض عن الشر ويضيق به، ويفر منه، وهذا هو جوهر الإيمان.

ويمكن تلخيص وجهة نظر الإسلام من ناحية تربية الإنسان تربية خلقية فيما يأتى:

١ - أن الإنسان خلق مزوداً بقوى واستعدادات يمكن أن توجه إلى الخير، كما يمكن أن توجه إلى الشر، فليست إرادة الإنسان مقصورة على الخير المحض ولا على الشر المحض. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾<sup>(٢)</sup> ويقول سبحانه وتعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) أى فى إرواء كل حى ثواب، وفى الحديث الحث على الإحسان إلى الحيوان.

(٢) سورة الإنسان الآية ٣.

(٣) سورة البلد الآية ١٠.

٢ - كل إنسان مسئول عن تهذيب نفسه وإصلاحها، ويقول سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ  
بَصِيرَةٌ﴾ (١).

٣ - تزكية النفس وإصلاحها هو سبيل الفلاح، كما أن إهمالها هو السبيل إلى الخيبة  
والخسران، يقول الله سبحانه: ﴿وَالْمَصْرُورُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (٢).

٤ - وإصلاحها يتمثل في التخلص من الهوى وكبت الشهوة، والارتفاع عن المادة، والسمو  
عن النقائص الخلقية، فإن الهوى داع إلى الشر والفساد، وصاد عن الحق والخير، وصارف عن  
الهوى والرشاد، يقول الله سبحانه مخاطباً داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
إِنَّ الَّذِينَ يَبْضُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣).

٥ - والتخلص من الهوى يحتاج إلى مجاهدة شاقة، وصبر ومصابرة، فإن طريق الوصول  
إلى الكمال ليس مفروشاً بالورود ولا بالرياحين، يقول الرسول ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره،  
وحفت النار بالشهوات» [البخارى ومسلم].

وفظام النفس عن شهواتها يحتاج إلى مراقبة دائمة، وخوف من الله ويقظة من الضمير. يقول  
الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٥)﴾ (٤)،  
وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر  
من هجر ما نهى الله عنه» [رواه مسلم].

والعبادات هي التي تجدد الإيمان بالله، وتعصم الإنسان من الانزلاق الخلقى، يقول  
الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنَ الْكِتَابِ وَأُقِمُ الصَّلَاةَ لِئَلَّا أَصِلَّ وَلَا أَتَمَّعُ بِمَا  
أَنْعَمْتُ عَلَيَّ وَلَا أَكْفُرُ بِاللَّهِ أَكْفُرًا﴾ (٥).

٦ - والقُدوة الطيبة والأسوة الحسنة لهما شأن كبير، وأثر بعيد في نفس الإنسان وفي  
نجاحه في الحياة إذ هي علم هاد يشير إلى المثل الحى، والفضيلة المجسمة، وعرض النماذج  
البشرية الصالحة، انثى يراد محاكاتها والاقتران بها. وقد أمر الله نبيه أن يقتدى برسول الله  
الذين تقدموه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أُمَّتُهُ﴾ (٦).

(١) سورة القيامة الآية ١٤.

(٢) سورة العصر الآية الآية ١ - ٣.

(٣) سورة ص الآية ٢٦.

(٤) سورة النازعات الآية ٤٠ - ٤١.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

(٦) سورة الأنعام الآية ٩٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (١).

وجعل الله للمسلمين مثلاً أعلى هو رسول الله الذي جمع ما تفرق في غيره من الصدق والوفاء والشجاعة والكرم والإيثار وسائر خلال مكارم الأخلاق فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ (٢).

٧ - واختيار الأصدقاء الذين يعينون على الخير، ويرشدون إليه مما يهتم له الإسلام، ويحرص عليه أشد الحرص، والإسلام يدعو إلى مصادقة الأخيار ومجانبة الأشرار: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

وأوصى علقمة ابنه فقال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صاحبته زانك، وإن قعدت بك مئونة عانك.

اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سترها. اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتدأك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن تنازعتما أترك.

٨ - والبيئة هي التي تصوغ الإنسان في قالبها بطابعها، فكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وقد عمل الإنسان - جاهداً - على أن تكون البيئة - التي ينشأ فيها الفرد - تقيه تتحقق فيها الفضائل، ويحترم فيها المعروف، وتتناول فيها الآداب على أنها أوضاع مقررة وعرف عام (٤).

- ٥ -

## الأخلاق والتقدم الحضارى

إذا نظرنا إلى النواحي الحضارية وجدنا هناك مبادئ شديدة الصلة بالجانب الأخلاقى، نأخذ مثلاً الجانب المهم والفعال فى تقدم الحضارة وهو العلم، فنجد الإسلام يهتم بالعلم ويدعو الناس إلى الجد فى طلبه، ويرفع شأن العلماء ويحثهم على نشر العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥).

وبين الرسول ﷺ أن الأثر العلمى الذى يتحركه الإنسان فى حياته سوف ينال ثواب جهده

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٣) سورة الزخرف الآية ٦٧.

(٤) بتصريف من كتاب دعوة الإسلام / السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة.

(٥) سورة الزمر الآية ٩.

وعمله بعد مماته فقال في الحديث الذى رواه مسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .  
 كما بين أن الإنسان الذى يعمل بعمله وهدية سينال أجرًا مثل أجر العاملين به فقال ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» . [رواه مسلم] .  
 هذا ... وقد وردت نصوص كثيرة فى الإسلام تأمر الآباء بتعليم أبنائهم وبناتهم وأيضاً تعليم خدمهم - وسنشير إليها فى حينها - إن شاء الله وذلك لينتشر العلم والفضيلة فى المجتمع الإسلامى، فالعلم وسيلة لتحقيق الخير وإزالة الشر، وذلك وظيفة الأخلاق فى الإسلام، ولهذا شجع الإسلام طلاب العلم ورفع من شأنهم ودعا إلى البحث عن العلم والتغرب من أجله، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، كما أمر باحترام طلاب العلم وإكرامهم وخاصة الذين اغتربوا من أجل العلم فقال الرسول ﷺ: «من سلك طريقاً يبْتَغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» [رواه أبو داود] .  
 ولا شك أن الإنسان إذا رأى من الناس تقديرهم لجهوده العلمية وإذا علم أن له ثواباً عند الله لآثاره العلمية يناله بعد موته فإن ذلك يشجعه على أعمال علمية عظيمة، وهذا يؤدي بدوره إلى ازدهار العلم وتقدمه، ومن ثم تكون النتيجة تقدم الحضارة لأن العلم أساس الحضارة وروح أخلاقية العلم تؤدي إلى الخير.

- ٦ -

## الأخلاق والتقدم الاقتصادى

كما نجد فى الإسلام توجيهات أخلاقية تؤدي إلى التقدم الاقتصادى. ومما هو معلوم أن التقدم الاقتصادى يتم عن ثلاث طرق: الزراعة والصناعة ثم التجارة، ونجد الإسلام يهتم بكل هذا. فنراه مثلاً يدعو إلى الزراعة ويعتبر كل نفع يأتى منه للإنسان أو الحيوان فهو صدقة للزراع. فيقول رسول ﷺ: «لا يغرس المسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة» [رواه مسلم] .

أما فيما يتعلق بالتجارة فنجد القرآن الكريم يحث على أن تكون التجارة عن التراضى لا عن الغصب والاستغلال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢.

(٢) سورة النساء الآية ٢٩.

لأن التجارة المبنية على الاستغلال والغصب لا تؤدي إلى رفاهية الحياة الاجتماعية، بل تؤدي إلى التناحر والتطاحن وإلى الحروب التي تآكل الأخضر واليابس، والتي لا تزال البلاد تعاني من ويلاتها.

وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام الإنسان أن يكون عالة على غيره، وأمره بالاكْتِسَابِ بعمل يده فقال: «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» [رواه البخاري]. وعن المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [رواه البخاري]. ونجد الإسلام - أيضاً - يدعو إلى الاختراع الذي يأتي منه الخير والنفع للناس في أي ميدان من ميادين الحياة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء» [رواه مسلم].

- ٧ -

## التعمير والإصلاح

وفيما يتعلق بالتعمير وال عمران فقد دعا الإسلام إلى إحياء الأرض الميتة وشق الآبار والأنهار، والبحث عن المعادن في بطون الأرض، وبناء العمارات للمساكين والفقراء والمحتاجين، وبناء المساجد وتعميرها، وجعل لمن يكافح في هذا الميدان مكافأة. وقد ورد في ذلك كله نصوص كثيرة منها:

● ما ورد في إحياء الأرض الميتة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضاً ليست لأحد فهو أحق» [رواه البخاري]

وقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق» [رواه أبو داود].

● وفيما يتعلق ببناء المساجد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة» [رواه مسلم].

وقال أيضاً: «من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة» [رواه البخاري].

● كما شجع الإسلام على إقامة المشروعات مثل بناء المساكن وإصلاح الأراضي وحفر الآبار ثم وقفها للفقراء والمساكين فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجره، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد

موته [رواه ابن ماجة] : وهكذا نجد التوجيهات الأخلاقية في الإسلام كلها بناءة تأمر بالتعمير والإصلاح كما تأمر بمكارم الأخلاق.

## الآداب الاجتماعية من الأخلاق في الإسلام

لقد عنى الإسلام بالتشريع الاجتماعي الذي يحدد العلاقة السوية بين البشر، وحرصاً على تماسك المجتمع وترابطه فإن الإسلام ينشئ أفراداً على التعاون والتكافل في شتى المجالات، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾<sup>(١)</sup>، وسوف نرى أثناء مسيرتنا في هذا الكتاب، وأثناء عرض أنواع الواجبات الاجتماعية المختلفة: أن الجوانب الاجتماعية هي جوانب تعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وقراءة القرآن والذكر وقيام الليل، بل بعضها يفوق في ثوابه كثيراً من أنواع التعبد المعتادة.

وتصور معي أن إلقاء السلام عبادة، وعبادة المريض عبادة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وصلوة الرحم عبادة، وبر الوالدين عبادة، وإغاثة الملهوف عبادة، وقضاء الحوائج عبادة، ومساعدة المحتاج عبادة، ولو أن تحمل عنه شيئاً ثقیلاً يثقل عليه حمله.

والخلاصة: أن كل حركة لصالح إنسان أو حيوان - هي مأذون فيها شرعاً - إذا فعلها لوجه الله فهي عبادة، وهي في الوقت نفسه من صميم الأخلاق في الإسلام.

وعند معاملة الناس دعا بصفة خاصة إلى بسط الوجه عند المقابلة، ونهى عن تصعير الخد فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» ودعا إلى عدم التناجى بين الاثنين دون الثالث فقال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه» [رواه مسلم].

كما دعا إلى احترام كل إنسان بما يليق به من التقدير حسب دينه وعلمه ومنزلته بين الناس، فقال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم». [رواه أبو داود] وكان ينصح دائماً بتحسين الهنء وتجميل الظاهر وتطهير الثياب، وكما دعا الإسلام إلى تحسين الظاهر دعا أيضاً إلى تجميل الباطن وتحسينه فدعا إلى حسن الظن بالخالق كما دعا إلى حسن الظن بالمخلوق أو الناس، كما نرى الإسلام يأمرنا بالأدب في المأكل والمشرب والملبس ومعاشرتنا الناس.

من هذا كله يتبين لنا: أن الإسلام لا يدع أية ناحية من نواحي الخلق الحسن إلا ويدعو

(١) سورة المائدة الآية ٢.

(٢) سورة لقمان الآية ١٨.

إليها بقوة ويحث عليها في حماسة لينعم الجميع بالطمأنينة والاستقرار في ظل عدالة الإسلام وتعاليمه الخلقية.

والناس جميعاً في أخلاق الإسلام سواسية كأسنان المشط، وأيضاً المساواة أساس عام من أسس البناء الأخلاقي في الإسلام.

فقد دعا الإسلام إلى جميع الفضائل المادية والمعنوية، ونهى عن جميع الرذائل المادية والمعنوية أيضاً، فقد دعا إلى المودة والتعاون والرحمة والعفة والإحسان والأمانة والاستقامة والإصلاح بين الناس والإخاء والعفو والصبر والشجاعة والتضامن وآداب الحديث وحسن الضيافة والطهر والسلام، وقد نهى الإسلام عن أضرار هذه الفضائل.



## الفصل الرابع

### أهم الأسس الأخلاقية في نظر الإسلام

- ١ -

#### الأساس الاعتقادي

#### (العقيدة والأخلاق في الإسلام)

هذا الأساس في غاية الأهمية في الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، ذلك أنه يعتبر السند الذي يعتمد عليه في إقامة النظام الخلقى، فبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها وعظيم تأثيرها في الإنسان، ولا يمكن أن تطبق الأخلاق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن إلا إذا استقر هذا الأساس في قلوب البشر وآمنوا به إيماناً صادقاً.

وهذا يعني الإيمان بوجود الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يدور في خلجات نفسه من النيات الخيرة والشريرة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَرْتَسِمُونَ بِهِ نَفْسَهُ...﴾<sup>(١)</sup> كذلك من تَمَّتْهُ الإِيمان: «الإيمان بوجود الحياة بعد الموت وهذه الحياة إما نعيم وإما جحيم فالأولى يكافأ بها من اتبع الحق وفعل الخير واجتنب الشر في هذه الدنيا، والثانية يجازى بها من اتبع الباطل وفعل الشرور والآثام، فالنعيم لمن استقام في هذه الحياة والجحيم لمن انحرف عنها. وهذه وتلك بعد حساب دقيق يقوم به الخلاق العليم، يحاسب فيه كل إنسان بما عمل من خير أو شر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿٨﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن أهمية العقيدة بالنسبة للأخلاق يقول الشيخ محمد الغزالي: ولقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوى يلد الخلق القوى حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.

● فالرجل الذي يؤذى جيرانه ويرميهم بالسوء يحكم الدين عليه حكماً قاسياً فيقول الرسول الكريم: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟

(١) سورة ق الآية ١٦.

(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ - ٨.

قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» [رواه البخارى].

● والإنسان معوج السلوك الذى يقتترف الرذائل غير مبال بأحد، يقول رسول الإسلام فى وصفه: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» [رواه الحاكم].

● والمتدين الذى يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادية الشر، كالحال الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب إنساناً تقياً؟

إن الإيمان والصلاح والأخلاق عناصر متلازمة متماسكة لا يستطيع أحد تمزيق عراها.

لقد سأل النبى ﷺ أصحابه يوماً: «أتدرون من المفلس؟»

قالوا: إن المفلس فىنا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار» [رواه مسلم].

ذلك هو المفلس: إنه كتاجر يملك فى محله بضاعة بألف، وعليه ديون قدرها ألفان، هل يعد هذا المسكين غنياً؟

إن الرذائل إذا نمت فى النفس، وفشا ضررها، وتفاقم خطرها، انسلخ المرء - من القيم - كما ينسلخ العريان من ثيابه، وأصبح ادعاؤه الإيمان زوراً وبهتاناً، فما قيمة دين بلا خلق، وما معنى الإفساد فى الأرض مع الانتساب لله<sup>(١)</sup>.

أهمية الأساس الاعتقادى:

الأساس الاعتقادى هو الأساس الذى يقوم عليه بنیان الأخلاق فى الإسلام، بل هو أساس للحياة كلها، إذ لا معنى للحياة - فى الحقيقة - دون وجود هذا الأساس ودون الاعتماد عليه والذى يقرأ كتب الوجوديين وأمثالهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يرى كم يعانون من الاضطراب النفسى والقلق فى أعماق قلوبهم، وخاصة كتاباتهم فى التفكير الأخلاقى وهم يحاولون أن يبرروا ذلك كله بإسناده إلى الطبيعة، وذلك جهل واضح وخروج على القيم والأخلاق، إذ إن فى طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان وهو غير موجود عندهم.

فوجود هذا الفراغ فى حياة هؤلاء وأمثالهم هو السبب فى إحساسهم بالنقص والاضطراب فى الحياة وذلك الإحساس هو الذى يدفعهم فى بعض الظروف المحرجة إلى التخلص من الحياة بالانتحار.

(١) بتصرف، من كتاب خلق المسلم/ محمد الغزالي. دار الكتب الحديثة القاهرة.

ومما يؤيد صدق هذا القول أن أولئك يقضون على حياتهم بالانتحار لا يفعلون ذلك لضيق معيشتهم، بل إننا نجد منهم من هم أغنى الناس لا ينقصهم أدنى شيء من متع الحياة، وإنما ينقصهم في الحقيقة الطمأنينة الداخلية التي يكونها الإيمان أو العقيدة السليمة<sup>(١)</sup>. ومن مميزات تلك العقيدة أنها تضيء على القوانين الأخلاقية قداسة تسمو بها على القوانين الوضعية التي هي من صنع البشر.

- ٢ -

## الأساس الواقعي والعلمي

### ١- أساس الاعتدال بين الواقعية والمثالية:

إذا كان الإسلام قد دعا إلى المثالية والسمو الروحي وذبم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، فإن دعوته إلى المثالية لم تكن متطرفة كبعض الدعوات الروحية الأخرى التي كانت تدعو الإنسان إلى محاربة الطبيعة وعدم الركون لها. بل كان اتجاه الإسلام نحو الطبيعة في إقامة نظامه الخلقى اتجاهًا معتدلًا، وحقيقة هذا الاتجاه المعتدل تظهر إذا وضحنا الموقفين اللذين وقفهما الإسلام من الطبيعة.

ففي الموقف الأول: دعا إلى الاستعلاء على الطبيعة وعدم الاستسلام لها لأن الإسلام طلب من الإنسان أن يكون سيدًا على الطبيعة وسيدًا على نفسه في الحياة، ولا يكون الإنسان سيدًا على الطبيعة إلا بتسخيرها وتكييف مادتها في صورة تؤدي إلى عمران الأرض والسمو بالحياة وفقًا للمنزلة العالية التي أراد الله للإنسان أن يرقى إليها في هذه الأرض بعد أن أنشأها فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

ولا يستطيع الإنسان أن يكون سيدًا على نفسه إلا بضبط ميوله ورغباته وتوجيهها وفقًا للمثل العليا التي رسمها الله أمام الإنسان والتي تدعو إلى عدم اتباع الهوى والشهوات، وتدعو إلى الله بالتسامي الروحي.

وفي الموقف الثاني: دعا إلى مهادنة الطبيعة والواقع وعدم الاصطدام معها لأن الحياة مع مخالفة الطبيعة - بهذه الصورة - لا يمكن أن تستمر، بل تبوء بالفشل.

### ٢- مراعاة قوانين الطبيعة والحياة:

ومراعاة الطبيعة والواقع تتم عن طريق اتخاذ قواعد السلوك وفقًا للقوانين الأساسية للحياة

(١) بتصرف شديد - من كتاب علم الأخلاق الإسلامية - د/ مقدار بالجن.

(٢) سورة هود الآية ٦١.

البشرية، وأهم هذه القوانين:

- قانون المحافظة على الحياة.

- قانون تكاثر النوع البشرى.

ويدخل فى القانون الأول (المحافظة على الحياة) كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها يعتبر سلوكاً أخلاقياً، وكل سلوك من شأنه أن يعرقل مسيرة الحياة - بصورة من الصور - يعد سلوكاً غير أخلاقى ومن هنا حرم - أخلاقياً - القتل واستغلال الناس للمصالح الشخصية وإعاقة أعمال الناس والتهديدات وإخافة الناس، وحرم التحاسد والتدابير والتباغض لأن كل ذلك يعرقل مسيرة الحياة.

ومن ثم أوجب الإسلام احترام حقوق الناس فى دمايتهم وأموالهم وأعراضهم، وحض على الأعمال التى تنظم الحياة وتحفظها مثل السعى لخير الناس وقضاء حوائجهم وبث المحبة والمودة والسور والبهجة فى نفوسهم، وقد ذكرنا فيما سبق نصوصاً تشير إلى أغلب هذه الجوانب.

وفىما يتعلق بالقانون الثانى (قانون تكاثر النوع البشرى) يعتبر السلوك الذى يؤدى إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً. ومن هنا فإن الله شرع الزواج وكره الرهينة يقول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الامتناع عن الطعام والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع.

وكما نهى الرسول ﷺ عن الرهبانية فإنه دعا إلى حسن اختيار الزوجة من السلالة السليمة عقلاً وجسماً وذلك لتحسين النسل فقال ﷺ: «تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» [رواه الحاكم].

والحقيقة الواضحة للناس جميعاً أن سوء خلق الوالدين يؤثر فى الأبناء ليس عن طريق التقليد فحسب، بل العلم الحديث يثبت أنه يؤثر أيضاً عن طريق الخلايا الملقحة.

ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل لأنه يعد منعاً لاستمرار النوع البشرى ولهذا منع الإجهاض وعده جريمة سواء كان من قبل الأم أم من قبل غيرها. ومن واجبتنا - هنا - أن نعرض لمشكلة اجتماعية عامة وهامة ألا وهى مشكلة تحديد النسل، وتبين حكم الإسلام فيها من الوجهة الأخلاقية.

## تحديد النسل

سبق أن بينا أن غريزة التناسل قانون من قوانين دوام حياة النوع واستمراره. وقلنا إن الإسلام يحرم كل سلوك يصاد هذا القانون ويحول دون استمرار التناسل. أما الحد من كثرة

(١) سورة الحديد الآية ٢٧.

التناسل بطريقة من الطرق دون الإسقاط أو الإجهاض - وهو ما يسمى بتنظيم النسل - فهو أمر ورد فيه نصوص متعددة بين الإباحة والحظر حسب اختلاف الظروف والأحوال. وإذا بحثنا عن دوافعه وأهدافه وجدنا أنها تكاد تنحصر في أحد الأمور الآتية:

الأمر الأول: التخلص من الضائقة الاقتصادية أو الخشية من ضيق الرزق.

الأمر الثاني: تجنب الضرر الذى يلحق بالأولاد أو بأحد الأبوين.

الأمر الثالث: المحافظة على جمال المرأة وحسن التمتع بها.

أما عن الأمر الأول الذى هو الدافع الأساسى الذى تتذرع به تلك الدعوات على مستوى المجتمعات البشرية، إذ يقولون: إن تجاوز نسبة المواليد نسبة الإنتاج الصناعى والغذائى أمر يدعو إلى الخطر فى المستقبل وهو أساس المشكلة الاقتصادية التى تعانى منها المجتمعات الفقيرة المتخلفة من الناحية الاقتصادية.

ولتفنيد هذه الفرية يمكن القول بأنه لو كان المسلمون اليوم متعاونين ما كانت حاجة إلى التحديد بعد أن ظهرت ثروات هائلة فى بعض الأقطار، يفيض خيرها على سكانها، ويحتاج معها إلى خبرات الآخرين، ويوزع الفائض على الأقطار الفقيرة، فحيث تكثر الموارد فلا حاجة إلى التحديد، وحيث تقل فلا مانع من النظر فيه.

ويجب ألا نضيع بين تزمّت من يقولون: الرزق على الله مضمون، وبين من يقولون: إن التحديد دعوة غريبة وخدعة استعمارية.

بعد هذه المقدمة نقول:

إن كلمة تحديد النسل يراد بها وضع حد لكثرة التناسل ويعبر عنها أحياناً بتنظيم النسل ومراقبته، وأحياناً تنظيم الأسرة.

وتحديد النسل موضوع دعا إليه عامل اقتصادى، ولكن يجب أن نعرف أنه لا بد من مراعاة المبادئ الدينية والخلقية عند البحث فيه، والذين بحثوه فى المجتمع الإسلامى التمسوا له أدلة من وقائع حدثت أيام الرسول ﷺ لم يكن المعنى الاقتصادى هو المسيطر عليها تماماً، بل كان المعنى الدينى واضحاً فيها كل الوضوح.

وإذا كانت الدعوات بتحديد النسل تتزايد ليل نهار على أساس أنه يهدف إلى قلة السكان، فإنه من الملاحظ - دولياً - أن قلة السكان ليست وسيلة الرفاهية من وجهة النظر العلمية، ذلك أننا نجد هناك دولة مثل اليابان بالرغم من التضخم السكانى فيها، وبالرغم من قلة الموارد الطبيعية والمساحة الأرضية بالنسبة لسكانها، بالرغم من هذا كله تتوفر فيها الإمكانيات الاقتصادية لأنها تعمل بالأساليب العلمية الحديثة فى مختلف المجالات.

وعلى العكس من ذلك تمامًا نجد هناك دولاً كالسودان - مثلاً - بالرغم من توفر الإمكانيات الطبيعية وقلة سكانها يسود فيها التخلف الاقتصادي والفقر والتأخر لأنها لا تتخذ من العلم وسيلة للتقدم الاقتصادي<sup>(١)</sup>.

ويقول الدكتور عبد الغفار عزيز: «ولا يمكن لعاقل أبداً أن يقول: إن كثرة النسل في بلد كمصر ستؤدي حتماً إلى أضرار وأخطار كما يقول دعاة التحديد الذين اعتمدوا على نظرية قديمة أثبت العلماء المنصفون من الغربيين أنفسهم عدم صحتها، والتي لو صحت لكانت الصين في حساب الشعوب البائدة، فلا يزال في مصر كثير من الموارد لم تستنفد، ولو تم استغلالها لسير نمو السكان وزيادة، فيكفى أن تعلم أن مصر تصرف في اليوم الواحد أكثر من مليون جنيه في السجائر وحدها، ولن يموت المدخنون لو امتنعوا عن التدخين»<sup>(٢)</sup>.

أما إسرائيل فإن أكبر مشاكلها في قلة عدد سكانها وتخشى من زيادة عدد السكان العرب المقيمين حولها في فلسطين المحتلة بالذات، وخوفها من أن تؤثر هذه الزيادة في المستقبل على استعادة فلسطين وطرد اليهود منها، وفي نفس الوقت فإن إسرائيل تدعو يهود العالم للهجرة إلى فلسطين المحتلة، وتنفق عشرات الملايين لجلب اليهود إليها.

هذا رأى العلم والواقع في هذه النقطة ولننظر إلى رأى الإسلام فنقول:

### موقف الإسلام من تحديد النسل

وإذا أردنا أن نعرف حكم الشرع في هذا الموضوع فليكن اعتمادنا على النصوص الشرعية وآراء علماء الإسلام بصرف النظر عن اهتمام الغرب به، فالإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، طرق هذا الموضوع وتحدث فيه بعقلية المتكلم الفقيه المتصوف، وتحدث عن العامل الاقتصادي في الحد من النسل بطريق العزل قبل أن يتحدث عنه علماء هذا العصر.

وقد اختلفت أقوال الفقهاء في حكم تحديد النسل بناء على اختلافهم في حكم العزل، وملخص أقوالهم في ذلك أربعة:

١ - قول يجيز العزل مطلقاً، روى ذلك عن عشرة من الصحابة منهم: علي وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، والحسن بن علي وابن مسعود، واستدلوا بهذه الأحاديث:

(١) كتاب علم الأخلاق نقلًا عن حركة تحديد النسل لأبي الأعلى المودودي.

(٢) بتصرف من كتاب تحديد النسل جريمة في حق الدين والوطن - د. عبد الغفار عزيز. دار الحقيقة للإعلام الدولي القاهرة.

● حديث البخارى ومسلم عن جابر: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل وزاد مسلم فى رواية: فبلغه ذلك فلم ينهنا. فأقرار الرسول لعمل الصحابة وعدم نهيههم عنه دليل على جوازها.

● ورد عن جابر - أيضا - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال له: إن لى جارية وهى خادمتنا وسانيتنا فى النخل - التى تسقى نخلنا - وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: «أعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها» [رواه مسلم وأبو داود].  
وفى رواية مسلم عن أبى سعيد: أن هذا الرجل أتى النبي ﷺ فقال: إن الجارية قد حبلى، فقال له: «قد اخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها».

والبواضح من الحديث أن السبب الحامل على العزل هو الإبقاء على صحة الأمة وعلى نشاطها لتستطيع الخدمة، كما هو الظاهر، وليس الباعث عليه خوف النسل والفرار من الإنفاق عليه. وقد يكون الباعث عليه كراهية أن يكون ولده من جارية تقوم بالخدمة، أو تجميدها بعدم بيعها مثلاً لأنها ستصير أم ولده.

● حديث مسلم عن أبى سعيد قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بنى المصطلق فسيبنا كرائم العرب، فطالت علينا العزبة ورغبنا فى الفداء، فأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا: نفعل ورسول الله بين أظهرنا لا نسأله؟

فسألنا رسول الله فقال: «لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون»، وفى رواية عنه أن النبي ﷺ سئل عن العزل فقال: «ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء».

● حديث مسلم - أيضا - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنى أعزل عن امرأتى، فقال له: «لم تفعل ذلك؟».

فقال له الرجل: أشق على ولدها أو على أولادها.

فقال رسول الله ﷺ: «لو كان ضاراً لضر فارس والروم».

قالوا: إن النبي ﷺ لم يحرم على الرجل العزل، ولكن بين أن عدم العزل لا يضر الولد فالعزل مسكوت عنه على الأقل «أو إقرار له، غير أنه ينبغى أن يلاحظ أن الباعث على العزل ليس الفرار من النسل وتحمل مؤنتهم، بل هو باعث صحى».

٢ - قول يحرم العزل مطلقاً، وبه قال جماعة من أهل العلم أشهرهم ابن حزم واستدلوا بحديث مسلم: «أن أناساً سألوا رسول الله ﷺ عن العزل: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الواد الخفى».

وأجاب المجيزون بأن هذا ليس وأدًا حقيقيًا، يقول ابن القيم: وقد اتفق عمر وعلى رضى الله عنهما على أنها لا تكون موعودة إلا إذا مر عليها القارات السبع فروى القاضى أبو يعلى وغيره قال: جلس عمر وعلى والزبير وسعد رضى الله عنهم وتذاكروا العزل، فقالوا لا بأس به، فقال رجل إنهم يزعمون أنها الموعودة الصغرى.

فقال على رضي الله عنه: لا تكون موعودة حتى تمر عليها القارات السبع، حتى تكون من سلالة من طين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظامًا، ثم تكون لحمًا، ثم تكون خلقًا آخر، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت أطال الله بقاءك، وعلى رضى الله عنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾<sup>(١)</sup>.

٣- وهناك قول ثالث يجيز العزل إذا أذنت فيه الزوجة، ولعل هذا مبني على أن فيه إيذاء للزوجة، فهي تريد أن تتمتع كما يتمتع الرجل، ولكن العزل يحدث نفورًا وقلقًا عند الزوجة، ويسبب لها أحيانًا مرضًا نفسيًا خطيرًا، كما أن المرأة تشارك الرجل في حق الولد فلا يعزل عنها إلا بإذنها، وهذا هو رأى الأحناف، وقد استدلوا عليه بحديث رواه أحمد وابن ماجه عن عمر بن الخطاب قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها.

وهذا الحديث علق عليه ابن تيمية بقوله: وليس إسناده بجيد، لكن المتأخرين من الأحناف أفتوا بجواز العزل بدون إذنها إذا خيف على الولد السوء لفساد الزمن.

٤- وهناك قول يجيز العزل فى المملوكة دون الحرة خوفًا على الولد من الرق إن كانت زوجته أمة لغيره، لكن بشرط إذن سيدها، وخوفًا على ضياع ملكه لها إن صارت أم ولد بالولادة فإنه يمتنع عليه بيعها، وتعتق عليه بعد موته، ذلك أنه من المقرر فى الشريعة الإسلامية أن الأمة إذا ولدت من سيدها فإنها تصبح حرة، وليس لسيدها التصرف فيها بالبيع ونحوه، ومن ثم فهو يعزل عنها كى لا تحمل، وغبه منه فى دوام الاستفادة منها كأمة.

- ٣ -

## شمول الأخلاق

### (ارتباط معظم أحكام الشريعة الإسلامية بالأخلاق)

الأخلاق الإسلامية تبدو ركيزة أساسية فى كل نواحي الحياة الإنسانية، فهي تفرض نفسها على جميع وجوه النشاط البشرى، سواء ما اتصل منها بعلاقة الإنسان مع نفسه، أم مع

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢.

ربه، أم مع بنى جنسه فى الفرد والمجتمع، بل يتخطى ذلك كله إلى علاقة الإنسان بالكون، وهذا يعنى شمول الأخلاق للحياة الإنسانية كلها، ولذلك نلاحظ الجانب الأخلاقى فى كل تعليماته وتشريعاته وشعائره ونظمه، فالإسلام لم يهمل أى نوع من المطالب الأساسية للإنسان لكنه أدخلها جميعها فى حسابه، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقى على هذا الأساس.

وهذه المطالب تنقسم بصفة عامة إلى قسمين أساسيين هما:

## ١- المطالب الروحية. ٢- المطالب الحسية.

١- فالمطالب الروحية كما قررها الإسلام هى أداء العبادات المختلفة من الصلاة والصوم والحج والزكاة وأن يذكر الإنسان دائماً أن الله خالقه ورازقه ويستمد منه العون، ويتوكل عليه فى كل شىء لأن الأمر بيده وأنه على كل شىء قدير، وأن يتذكر أن هذه الحياة مؤقتة ستتحول فى النهاية - إن أحسن الإنسان عمله - إلى حياة أبدية ملؤها السعادة والهناء.

ولهذه الحياة الروحية دور كبير فى سعادة الإنسان، ذلك أن الإنسان عندما يحيا هذه الحياة يشعر بالاطمئنان والراحة فى أعماق قلبه لأنه يحس دائماً فى قرارة نفسه بأن الله راض عنه وأنه سيكلؤه بعنايته ويحفظه برعايته، وهو بعد ذلك يتطلع إلى حياة صافية من الأحزان والآلام: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ (١).

٢- المطالب الحسية الأساسية للإنسان مثل الأكل والشرب والملبس والسكن والنكاح وما إلى ذلك فهى ضرورية أيضاً لدوام الحياة أولاً، وللشعور بالسعادة ثانياً، ولهذا فقد أباح الإسلام كل ما يحتاج إليه الإنسان بالضرورة، وحرم كل شىء يضر بالصحة، وقد سُمى الأول بالطيب والفانى بالخبث: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ (٢).

- وكيف يحرم الطيبات وهو الذى خلقها رزقا للعباد: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (١) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (٢) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (٣)﴾ (٣).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَعَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ (٤).

(١) سورة القمر الآية ٥٥.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٣) سورة ق الآية ٩ - ١١.

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤١.

وليس لمجرد الرزق بل للمتعة والبهجة قال تعالى: ﴿يَبْتِغِي مَادَمَ حُدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ (١).

وأباح النكاح للحاجة البيولوجية وللمتعة النفسية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

وروى أحمد فى مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من سعادة المرء: الجار الصالح، والمركب الهنىء والمسكن الواسع».

ومن النعم التى خلقها الله لنا الأنعام قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَعُونَ وَحِينَ يُسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَشِيقَ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (٣).

كل هذه النعم أعدها الله للإنسان لكن عليه أن يأخذ الطيبات ويترك الخبائث، وأن يعلم أن الحياة الدنيا إنما هى مجرد وسيلة للوصول إلى الحياة الآخرة لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤).

وهكذا نجد الإسلام يقرر للإنسان حياة مادية حسنة حيث يعمل على تحقيق مطالبه، وهذا مما لا شك فيه يمثل جزءاً من سعادة الإنسان فى هذه الحياة، وصلة تحقيق الحاجات بالأخلاق أن حرمان الإنسان نفسه من حقه ظلم كظلم غيره، والظلم مناف للأخلاق (٥).

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ - ٣٢.

(٢) سورة الروم الآية ٢١.

(٣) سورة النحل الآية ٥ - ٨.

(٤) سورة القصص الآية ٧٧.

(٥) انظر علم الأخلاق الإسلامية، د/ مقداد بالجن.

## الغاية من التزام قواعد الأخلاق (تحقيق السعادة الأبدية في دار الخلد)

وأخيراً يرى الإسلام أنه لكي تتحقق السعادة للإنسان، لا بد أن نضيف إلى ما سبق تحديد الغاية للإنسان في هذه الحياة، وهذه الغاية هي الفوز برضا الله تعالى، والدخول في دار الخلد والنعيم المقيم، دار السعادة الأبدية في الحياة الآخرة فهذه هي السعادة الكاملة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُورٍ﴾<sup>(١)</sup> إن ربط الإنسان مصيره بالسعادة له دور كبير في إحساسه بالسعادة في مختلف الظروف مهما تكبد في سبيلها من عناء ومشقة لأن السعادة الأخرى أمل الإنسان دائماً إن عاجلاً أو آجلاً، وهذا الأمل هو الذي يبعث في نفس الإنسان الاطمئنان والرضا، لذا قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَى إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنَّةَ ﴿٣٠﴾﴾<sup>(٢)</sup>

• ذلك أن الله سبحانه قد جبل عباده على الميل إلى الأفراح واللذات، والنفور من الغموم والمؤلمات، ووعده من عصي هواه وأطاع مولاها بما أعده في الجنان من المثوبة والرضوان ترغيباً في الطاعات ليتحملوا مشاقها ومكارهاها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾<sup>(٣)</sup>  
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئاً ﴿٤١﴾﴾<sup>(٤)</sup>، فبالعمل الصالح يستحق أهل الجنة الجنة.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة هود الآية ١٠٨.

(٢) سورة الفجر الآية ٢٧ - ٣٠.

(٣) سورة النازعات ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة النساء الآية ١٢٤.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥.

● والجنة هي دار النعيم في الآخرة، أعدها الله تعالى للمؤمنين الموحدين من عباده الذين آمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجعلها نزلاً ومقاماً دائماً لعباده المخلصين المتقين الذين يخافون ربهم ويخشونه، والمجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (١).

وبما أن الجنة من المغيبات فقد وجب على المؤمنين الإيمان بها والعمل من أجلها والسعي لدخولها، جزاء لما فعلوه في الدنيا وقدموه من أعمال صالحة بنية طيبة ابتغاء وجه الله وابتغاء رضوانه.

- يقول بعض العلماء - إن رحمة الله في هذا اليوم - يوم القيامة - تسبق غضبه حتى إنه عز وجل يحاسبهم برحمته، تلك التي لولاها لما دخل الجنة أحد، مهما كان عمله لقول الرسول ﷺ «سدوا وقاربوا، وأبشروا، وأعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة» [رواه الشيخان].

● والسعادة في الجنة تختلف كلية عن سعادة الدنيا، والنعيم فيها مطلق الحدود، حيث تنعم فيها تلك الوجوه النيرة بنعم لم يخطر لهم على بال ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

● وفي الجنة حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وغرف وقصور وأنهار شتى فصل القرآن الحديث عنها، وفصلت السنة النبوية الوصف فيها، وكلها أعدت لعباد الله المتقين. ويمكن أن نستخلص من هذا كله:

أن هدف الأخلاق في الإسلام هو تحقيق السعادة سواء في الدنيا أم في الآخرة لكنه عنى بسعادة الآخرة أكثر من الدنيا، لأنها السعادة الكاملة التي لا بد أن تتحقق للمؤمنين كما وعد الله عز وجل.

كما أن الإسلام اهتم بتحقيق السعادة بجميع جوانبها الروحي والعقلي والنفسي والحسي معاً، وكلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب تحققت السعادة، وعلى الإنسان أن يكون هدفه من الإيمان والعمل الصالح والسير على المنهج الإسلامي هو رضا الله عز وجل.

وسوف تأتي السعادة الأبدية بعد ذلك عن طريق هذا الرضا، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمُ عَقِبَى الدَّارِ﴾ (٣).

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) سورة السجدة الآية ١٧.

(٣) سورة الرعد الآية ٢٢.

## الفصل الخامس

### المسئولية الأخلاقية

- ١ -

توضيح:

إن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم بالعمل الخلقى، وتعنى المسئولية تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله فى الدرجة الأولى وأمام ضميره فى الدرجة الثانية، وأمام المجتمع فى الدرجة الثالثة<sup>(١)</sup>.

وتوضيح ذلك:

أن الله خلق الإنسان ووضع له النظام الأخلاقى، وهو الذى يعلم الظاهر والباطن ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾<sup>(٢)</sup> وأنه يسجل كل شىء ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخِرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

وجعل الإسلام سلطة الجماعة ملزمة، وبناء على ذلك اعتبر المجتمع مسئولاً عن انحراف الأفراد، لأن فساد بعض الأفراد قد يؤدي إلى فساد المجتمع كله يوماً ما، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾<sup>(٤)</sup>.

ولهذا قرر مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبر القيام بذلك من عزائم الأمور ﴿يَبْتَغِي أَعْرَابٌ الضَّلُوتَ وَأُمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥)</sup>.

إن إعطاء سلطة الإلزام للجماعة من الأهمية بمكان، ذلك أن من الناس من يكون وازعهم الإيماني ضعيفاً فلا يخافون من الله خوفهم من الناس فلو أنهم تركوا وشأنهم لبثوا الفساد فى المجتمع.

(١) التريبة الأخلاقية الإسلامية - د/ مقداد يالجن ص ٣٣١.

(٢) سورة الأعلى الآية ٧.

(٣) سورة يس الآية ١٢.

(٤) سورة الأنفال الآية ٢٥.

(٥) سورة لقمان الآية ١٧.

## شمولية المسؤولية

والمسئولية هي محاسبة الإنسان على كل ما يصدر منه من قول أو عمل، وهي تختلف باختلاف العقول والحالات، فالطفل في مهده غير مسئول، فإذا جاوز المهد واستقل باليسير من التفكير اعتبر مميزاً.

وهذه المسؤولية تتعاطم منذ عهد التمييز حتى يبلغ العقل غايته ثم لا تفارقه مادام حياً، وهي تعظم وتضؤل بحسب ما يضطلع به من حقوق وواجبات.

وينتظم في المسؤولية جميع الناس على تباين مناصبهم ومراتبهم ودرجاتهم وطبقاتهم وإن اختلفت بينهم ضيقاً واتساعاً.

فالوزير مسئول عن وزارته، والطبيب مسئول عن مرضاه، والقائد مسئول عن جيشه، والعلم مسئول عن تلاميذه، والأب مسئول عن بنيته، وكل ذى عمل مسئول عن عمله، وهذا هو الطريق الذى شرعه الرسول ﷺ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [رواه البخارى]، والمرء مسئول عن جسمه بإراحتة إذا تعب وترويحاه إذا مل، وتقويته إذا ضعف، ونحو ذلك برياضة النفس وتهذيبها وتكميلها وتنحيها من الذلل والوصول بها إلى الكمال.

وعن إخوانه بأن ينصفهم من نفسه ويبدل لهم من قلبه ووده ورحمته ما لا زيادة منه لمستزيد. وعن وطنه بأن يجعل فكره وجهده وماله وروحه ودمه رهن صيانتة وعلو شأنه. وعن بنيته بتدبير ما يصلحهم ويسرهم ويهذب نفوسهم ويقوى أجسامهم ويهيئ لهم أفضل الطرق إلى حياة طيبة ومستقبل بسام.

وعن خدمه بأن يبذل لهم كفايتهم من أجر وغذاء، وألا يجشّمهم الصعب ولا يكلفهم ما لا يطيقون.

وأعظم الناس خطراً، وأجلهم شأناً أعظمهم مسئولية، فمصرفو زمام الدولة من شيوخ ونواب ووزراء ورؤساء مسئولون عن حياة الأمة وسلامتها ورخائها وعزتها وشرفها.

وتتفاوت المسئولية بتفاوت العمل وعظم الأمانة، فسائق القطار وريسان الباخرة كلاهما مسئول عن أرواح ركابه، ومهندس البيت وبانيه كلاهما مسئول عن حياة سكانه، ومسئولية هؤلاء وأمثالهم من الأمناء على الأرواح أشد وأفدح ممن سواهم.

ومن أجل ذلك شرعت الشرائع، وسنت القوانين، وفرضت العقوبات للأوزار بحسب أخطارها على المجتمع، فما كان منها شديد الفتك بالجماعة كالقتل والزنا والسرقه كانت مسئوليته فادحة وعقوبته صارمة.

وكما أن الإنسان مسئول عن ماله فيم أنفقه، وعن ذكائه فيم نهج به، فكذلك هو مسئول عما يملكه من ماشية وأنعام، فلا يكلفها عنتاً، ولا يحملها شططاً، ولا يمنعها قوتاً، ولا يؤلمها حين ذبحها.

ففي الحديث النبوي الشريف «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» [رواه مسلم].  
ولتعلم أن للحيوان نفساً وحساً كحسك وأن الله سائلك فمشدد عليك المسألة عما استرعاك واثتمنك عليه.

ولا بد - إذن - من الإشارة إلى أن المسؤولية شاملة كاملة إذ إن كل إنسان مسئول مسئولية كاملة عن كافة أعماله وتصرفاته - كما بينا سلفاً في الأمثلة العديدة - يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١).  
ويقول الرسول ﷺ: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) [رواه الشيخان].

- ٣ -

## خصائص الإلزام الأخلاقي في الإسلام

يمتاز النظام الأخلاقي في الإسلام بخصائص هامة لا توجد بمثل هذا الوضع في الفلسفات الأخلاقية الأخرى وهي:  
١ - الالتزام بقدر الاستطاعة:

إن الإسلام قد راعى استطاعة الإنسان في إلزامه بالقوانين الأخلاقية ولهذا لم يكلفه فوق طاقته ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٢)، ﴿رُبُّدُ اللَّهِ بِكُمْ أَلْسَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ أَلْسَرَ﴾ (٣)، وهذا البدأ كما تقتضيه الأخلاق السليمة تقتضيه كذلك العدالة الإلهية إذ لا يمكن أن تكون الأخلاق صالحة للتطبيق إلا بهذا الشرط.

وليس من العدالة كذلك تكليف المرء ما لا يطيق بل هو ظلم، والله سبحانه وتعالى قد وصف بالعدالة ونفى عن نفسه الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

يَظْلِمُونَ ﴿١﴾، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٢﴾.

٢ - سهولة التطبيق:

ليست الأخلاق الإسلامية متوافقة مع قدرات الناس واستطاعتهم فحسب، بل إنها أسهل مما يظنونها ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ﴿٤﴾.

نرى من هاتين الآيتين أن الله تعالى لم يعقنا - فقط - مما لا طاقة لنا به، بل أعفانا أيضا مما نطيعه بشق الأنفس لأنه تعالى لم يضع نظامه لنا ليخرجنا ويضعنا في عسر وضيق من الحياة. بل أراد هدايتنا وتيسير السبل أمامنا للوصول إلى حياة سعيدة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿٥﴾ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ﴿٦﴾.

وكان الله قادراً أن يكلفنا فوق طاقتنا ولكنه لم يفعل ذلك رحمة بخلقه لأنه لم ينزل رسالاته إلا رحمة للعالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧﴾.

وهنا تظهر حكمة الله البالغة في وضعه هذا النظام المحكم بهذه الصورة، إذ إنه لو كلفنا بما نطيعه بشق الأنفس لما أمكن مسابرتة إلى الأبد.

٣ - مراعاة الحالات الضرورية (الرخص):

تظهر هذه المراعاة في تخفيف الإسلام عن المكلفين بعض التكاليف أو إعفائهم منها في بعض الظروف والحالات المحرجة الطارئة: فنرى مثلاً أنه خفف عن المسافر - في الصلاة والصوم - فسمح له بتأخير الصيام في شهر الصوم وبإداء الصلاة قصراً وعلى الراحلة، ونرى كذلك أنه ألقى العجزة والضعفاء من الجهاد ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ﴿٨﴾.

(١) سورة يونس الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٥) سورة الحج الآية ٧٨.

(٦) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٨) سورة الفتح الآية ١٧.

ونرى أيضاً أنه أباح - أحياناً - استبدال الالتزام بالالتزام آخر عند الضرورة فإذا لم يجد الإنسان ماء يتطهر به فإنه يتيمم بالتراب صعيداً طيباً حتى إنه أباح له بعض المحرمات - عند الضرورة - فللجائع مثلاً إذا خاف على نفسه الموت من الجوع أن يأكل من مال الغير جبراً إذا امتنع عن إطعامه بالرضا، وله أن يقاتل المستسقى إذا امتنع عن سقايته، بل أكثر من هذا وذلك فقد سمح للمسلم أن ينطق بالكفر إذا أكره عليه فلا يضره ذلك طالما قلبه مطمئن بالإيمان ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهَا عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

لأن الإسلام لا يهتم بالظاهر اهتمامه بالباطن ولهذا قال الرسول ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [رواه مسلم].

كما أباح الإسلام الكذب في بعض الحالات الضرورية إذا كان ذلك يؤدي إلى الخير العام أو ينقذ نفس الإنسان البريء من الإهدار فقد روى الرسول ﷺ أنه قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً) [رواه مسلم]، وروى مسلم أيضاً عن أم كلثوم بنت عقبة أنها قالت ولم أسمعته يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: تعنى الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها.

والكذب في حالة الإصلاح بين الناس قاصر على الكلمات الطيبة التي يسندها إلى أحد الطرفين المتنازعين أو كليهما، وكذلك الحال بالنسبة للزوجين فإن الشارع رخص في الكذب بينهما من أجل دوام رابطة الزوجية واستمرارها، وأيضاً في الحرب إذا كان الكذب يؤدي إلى إنقاذ الجيش أو أحد أفرادها ولا يمكن بغير ذلك، ومع هذا فمثل هذا الكذب رخصة وليست عزيمة فقد حثنا الرسول ﷺ على الأخذ بالرخصة فقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) [رواه مسلم]. وقال أيضاً: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته) [رواه البيهقي].

- ٤ -

### شروط المسؤولية الخلقية

وضع علماء الأخلاق شروطاً للفعل الذي تقرتب عليه المسؤولية الأخلاقية ونوجز الكلام عنها فيما يلي:

١ - أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسؤولية، وقد حدد الشارع هذه (الأهلية) بالتمييز والإدراك - أي العقل والبلوغ.

(١) سورة النحل الآية ١٠٦.

٢ - أن يكون العمل إرادياً أى بمحض اختياره وحرية، وبناء على ذلك فالإنسان غير مسئول عن الأعمال التي تصدر منه دون أن يكون لإرادته تسبب فيها كالرعشات، وحركة النائم المستغرق، وكتصرفات المجنون والمكره.

٣ - النية والقصد فلا يعد العمل خيراً أو شراً إلا بنية الفاعل بقطع النظر عن النتيجة التي يمكن أن تترتب عليه.

٤ - القانون الأخلاقي والعلم به: فمن الظاهر في مفاهيم الشريعة الإسلامية أنه لا مسؤولية مع الجهالة التي يعذر بها صاحبها، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾<sup>(١)</sup>.

٥ - أن يكون العمل مقدوراً عليه أى فى استطاعة الإنسان فعله أو تركه، فلا مسؤولية عن العمل مع العجز عن الفعل سواء كان عجزاً عن الفعل أم عجزاً عن الترك، وبداهة فإن العقول تقضى بأن الاستطاعة شرط لترتب المسؤولية قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾<sup>(٢)</sup>.

- ٥ -

## الجزاء والأخلاق

الجزاء هو رد فعل القانون الخلقى على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون والملتزمين به، وللجزاء ثلاثة ميادين هى:

١ - الجزاء الأخلاقى. ٢ - الجزاء الشرعى. ٣ - الجزاء الإلهى.

وفيما يلى بيان موجز لهذه الأنواع:

### ١ - (الجزاء الأخلاقى)

يباشر الإنسان عمله طبقاً لقواعد يعرفها ويحس بها، وبعد ذلك تحدث فى النفس أصداء معبرة عن الرضا فى حالة النجاح وعن الألم فى حالة الفشل، هذا يتعلق بالإنسان السوى المستقيم الذى يعرف أن هناك قواعد للسلوك وقيم لها وزناً ويعمل لها حساباً، أما ذلك الإنسان المعوج الذى لا يعرف قواعد السلوك ولا يقيم لها وزناً ولا حساباً ولا يؤنبه ضميره [لا يندم] عند اقتراح السيئات فإنه يكون فاقداً لمعنى الخير والشر تماماً.

فما معنى هذا بالنسبة للجزاء الخلقى؟

يحلل ذلك الدكتور دراز متوصلاً إلى أن الندم لا يعتبر جزاء لما يقترفه الفرد وهو ليس بعقوبة أو مكافأة للقانون الأخلاقى، ويرى كذلك أن المتعة والألم اللذين نحس بهما بعد أن نفعنا خيراً أو شراً هما رد فعل لضميرنا على ذاته أكثر من أن يكون رد فعل للقانون علينا،

(١) سورة الإسراء الآية ١٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

فهما تعبيران طبيعيان يدلان على توافق في الذات مع المثل الأعلى أو على تضاد الذات معه. وهذا ما يدل عليه نص الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ (من سرتة حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) [رواه الحاكم] ، فالحديث لم ينظر إلى حالات النفس هذه على أنها ثواب يقتضيه سلوكنا وإنما رأى فيه ترجمة وتحديداً للإيمان الخلقى<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فالتوبة هي الجزاء الخلقى .. إنها واجب يفرضه الشرع على أثر تقصير في أداء الواجب وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، فإن التوبة في ذاتها ندم على ما سلف ، وإقلاع عنه في الحال وعزم على عدم العودة في المستقبل.

إن التوبة لا يمكن أن تؤدي وظيفتها الإصلاحية في الأخلاق الإسلامية إذا اقتصر على مجرد الأسف على ما اقترفناه من شر ، والعزم على عدم المعاودة ولكنها موقف أكثر تعقيداً ، موقف ينظر للماضي والحاضر والمستقبل نظرة جديدة جادة ، وقد أوضح القرآن أهمية التوبة الصادقة ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>. فليس المهم التوبة فقط ، إنما المهم الإصلاح ، إصلاح ما نقص أو فسد أو أفسده الإنسان ، وهذا الإصلاح يتمثل في أمور عديدة منها :

( أ ) إما في عمل ناقص ويجب أن يعاد بطريقة مناسبة آجلاً أو عاجلاً.

( ب ) وإما في إصلاح شر بتعويض آثاره من سلبيات وذلك بأفعال صالحة مناقضة للفعال الأول: ﴿إِنِ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾<sup>(٣)</sup>.

( جـ ) وإما في خطأ واجب إزالته ، وفي هذا المجال يميز الرسول ﷺ بين أخطاء تنتهك في حق الله تعالى وهو ما يطلق عليه حق الله ، وبين أخطاء ترتكب في حق العباد وهو ما يسمى حق العباد والأخطاء التي ترتكب في حق الله تعالى يغفرها الله تعالى إلا الشرك.

أما ما يتعلق بحق العباد فمهما فعلنا من أفعال طيبة ، ومهما دعونا الله أن يغفر لنا فإننا نظل عاجزين على أن نصل إلى التوبة الكاملة ، إذ يجب أن نحصل على إبراء صريح ومحدد من الذين أسأنا إليهم ، والأحاديث في هذا المجال وافرة رويت في الصحيحين وفي المسانيد.

٢ - (الجزاء الشرعي) :

المراد بالجزاء الشرعي تلك العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله فيظلمون بذلك أنفسهم أولاً ، وغيرهم ثانياً.

(١) دستور الأخلاق في القرآن - د. محمد عبد الله دراز ص ٢٤٨ ، بتصريف.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٠.

(٣) سورة هود الآية ١١٤.

فإذا كان الجزء الأخلاقي يتصل بتركيب النفس من حيث تزكيته وإصلاحها، فإن الجزء الشرعي جزاء تأديبي أو عقابي لكل من تسول له نفسه بتجاوز قانون الحياة في المجتمع الإسلامي.

إن الترغيب والترهيب وإن كان لهما أثر بالغ في الردع عن مخالفة القواعد الشرعية لما يحدثانه من خشية وخوف ورجاء وطمع، ويؤازرهما في ذلك ما يسمى بـ (الوازع الأخلاقي) المتمثل في محاسبة النفس ومجاهدتها وما ينجم عن ذلك من نهى النفس عن الهوى وابتعاد الإنسان عن ارتكاب الخطايا والآثام إلا أن ذلك كله قد لا يكفي - أحياناً - لكف بعض الأخطاء عن الظلم والاعتداء واقتراف الجرائم، ومن ثم كان الوازع المتمثل في الحدود الشرعية، هاماً وضرورياً في هذا المجال، نظراً لما لهذا الوازع من خطورة اجتماعية.

وينبغي التنبيه إلى أن هذا الجزء الشرعي يرتبط بارتكاب الأمور المنهى عنها شرعاً، تلك الأمور التي تعد في حد ذاتها من المفسدات الأخلاقية، ومن هنا تأتي أهمية الجزاءات الشرعية في دفع المفسدات الأخلاقية.

أهداف الجزاءات الشرعية:

● الردع عن ارتكاب الجرائم أو تكرار وقوعها، وبالتالي تربية هؤلاء المجرمين وإصلاحهم.  
● جعل الذين يرتكبون هذه المفسدات أو الجرائم عبرة وعظة لغيرهم وزجرًا للغير عن التشبه بهم.

● القضاء على الثأر وإحلال الوثام والسلام في المجتمع والمحافظة على أمنه وسلامته. وبالنظر في نظام المجازاة في التشريع الإسلامي يمكن أن نميز فيه بين نوعين من العقوبات هما: (أ) الحدود: وهي الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة، وهي من حقوق الله تعالى، ولا تسقط بالعفو ولا بالصلح وهي تتعلق بالجرائم التالية: الزنا، السرقة القذف، شرب الخمر، قطع الطريق، الردة، البغي، والصرامة في هذه العقوبات لا تتيح مجالاً أمام أي تنازل أو حل وسط، وفي الأحاديث ما يوضح ذلك جيداً فلا شفاعة لأحد في حد من حدود الله ولا تنازل عن توقيع هذا الحد.

يوضح هذا الحديث الذي رواه الشيخان: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟» ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها» .

وهذه الأخطاء لا يجوز العفو فيها إلا إذا كانت في المجال الخاص فمتى وصلت الجريمة إلى السلطة أصبح تطبيق الحد أمراً جازماً لا رجعة فيه.

(ب) التعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يفرضها القاضى على معصية لا حد فيها ويتعلق بالتعزير حقان: حق الله وحق العباد، وما كان من حق العباد فيه غالباً فيجوز قبول العفو فيه، وما كان من حق الله فيه أغلب فإن التعزير واجب ولو عفا المتضرر.

وهنا تتنوع العقوبة الموقعة على المجرم من تأنيب إلى تعنيف أمام الناس إلى السجن إلى الجلد، ومن حق القاضى أن يتغاضى عن بعض الأخطاء القليلة حين تقع من إنسان ذى خلق. وقد روى عن النبى ﷺ: (أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود) [رواه البخارى].

٣ - (الجزاء الإلهى) :

إذا كان النوعان السابقان (الجزاء الأخلاقى والجزاء الشرعى) ينتميان إلى مجال الواقع الدنىوى، فإن الجزاء الإلهى له طبيعته وامتداداته.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم حدد الجزاء الإلهى فى ناحيتين هما:

- الجزاء الإلهى فى الدنيا. - الجزاء الإلهى فى الآخرة.

- الجزاء الإلهى فى العاجلة (أى فى الدنيا)

وهذا الجزاء فى الدنيا له عدة جوانب:

الجانب المادى: تأييد الله لجماعة المؤمنين والهداية والارشاد.

وبيانها كما يلى:

(أ) الجانب المادى:

يعنى أن من يقوم بفعل الأوامر ويلتزم بقواعد السلوك الأخلاقى يحصل على نصيب من ثوابها فى الدنيا وكذلك من يتجنب فعل الفضائل ويأتى مضادها من المساوى فإن الله يصب سخطه عليه وفى القرآن أمثلة تؤكد ذلك:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

- وفى سورة سبأ وبعد عرض قصتهم يقول الله عز وجل: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبَنِهِمْ جَنَيْنَ ذَرَأٍ أُكُلِ خِمَاطٍ وَأَثَلٍ وَأَتَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ (١٧).

(١) سورة النحل الآية ١١٢.

(٢) سورة سبأ الآية ١٦ - ١٧.



ويرشدهم إلى الطرق المستقيمة، ويمنحهم القوة على تمييز الحق من الباطل والخير من الشر، ويصلح نواياهم وينزل في قلوبهم الطمأنينة والسكينة.

أما الظالمون فيحدث لهم عكس ما يحدث للمؤمنين المتمسكين بالفضيلة وكذلك المؤمنون إذا غيروا مواقفهم فإن ذلك يؤدي إلى سحب النعم الممنوحة لهم ليصبحوا كالظالمين.

- الجزاء الإلهي في الآجلة: (الحياة الآخرة)

لا يقتصر الجزاء الإلهي على الجزاءات الدنيوية والتي سبق بيانها، بل إن الجزاء الإلهي يمتد إلى الآخرة فهناك عودة للعدالة الإلهية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾<sup>(٢)</sup>.

ومن ثم نجد تفرقة واضحة بين المؤمنين الصالحين، والظالمين، فلكل منهم جزاؤه في الآخرة مما يجعل العمل الدنيوي مرتبطاً أيضاً بالجزاء الأخروي ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. ولذا نجد الجزاء الأخروي على نوعين:

- الجنة للصالحين، وفيها نعيم مقيم وخلود دائم.

والنار للعصاة والمفسدين في الأرض والفجار خالدين فيها أبداً.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾<sup>(١٩)</sup> **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** <sup>(٢٠)</sup> **أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** <sup>(٢١)</sup> **﴾**<sup>(٤)</sup>.



(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

(٢) سورة القيامة الآية ٣٦.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١.

(٤) سورة الكهف من الآية ٢٩ - ٣١.